دَلالاتُ التَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيثِ في القُرآنِ الكَرِيمِ عِنْدَ البِقَاعِيِّ (ت ٨٨٥هـ)

(الجزء الثاني)

د. وائل عبد الأمير الحربي
كلية الآداب - جامعة بابل

فحوى البحث

يتناول البحث، دلالات التذكير والتأنيث في القرآن الكريم عند أحد أعلام التفسير في القرن التاسع الهجري، وهو البقاعي. وقد اتخذ البحث منهجاً يقوم على خمسة محاور. قام المحوران الأول والثاني بوظيفة التمهيد، إذ عرّف الباحث في المحور الأول بالبقاعي وكتابه (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور). و تحدث في المحور الثاني عن التذكير والتأنيث وضوابط كل منهما في العربية. ثم انصبّ الكلام في المحورين الثالث والرابع على موضوع هذا البحث وقد درس الباحث في هذين المحورين اكثر من خمسين آية كريمة، وجّه البقاعي التذكير أو التأنيث فيها توجيها دلالياً جديداً.. ومن أجل الوقوف على جِدّة هذه الدلالات، رجع الباحث الى أهم كتب معاني القرآن وتفسيره لتمييز موضع قراءة البقاعي الدلالية من قراءات اللغويين والمفسرين السابقين. ويأتي المحور الأخير متمثلاً بالخاتمة وفيها أهم النتائج التي توصل الباحث اليها. ونظراً لطول البحث آثرت المجلة تجزئته على قسمين. ننشر في هذا العدد جزءه الأول.

دَلالاتُ التَّأنيث: وَفيمَا يَأْتي نَقفُ عَلَى أَهَمِّ الآيَاتِ الَّتي وَجَّهَ البِقَاعِيُّ التَّأْنيثَ فِيهَا تَوْجيهًا دَلَاليًّا جَديدًا:

١. ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٥٨].

قَرَأَ ابنُ عَامرٍ (تُغْفَر لَكُم) بالتَّاءِ بَدَلَ النُّونِ[١]، وَيَرَى البِقَاعِيُّ أَنَّ التَّأْنيثَ في هَذِهِ القِرَاءَةِ يَدُلُّ عَلَى نُزُولِ القَدْرِ، المُتَرَتِّبِ عَلَى الخَطَايَا؛ قَالَ: ((وَفي قِرَاءَةِ: تُغْفَر، إِبْلَاغ أمر خَاطَبَهُم بِمَا يُفْهِمُهُ التَّأْنيثُ من نُزُولِ القَدْرِ وَفي قِرَاءَةِ اليَاءِ [أَي: يَغْفِرُ] تَوَسُّطٌ بَيْنَ طَرَفَي مَا يُفْهِمُهُ عُلُوُّ قِرَاءَةِ النُّونِ وَنُزُولِ قِرَاءَةِ التَّاءِ، فَفِي ذَلِكَ بِجُمْلَتِهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ خَطَايَاهُم كَانَتْ فِي كُلِّ رُتْبَةٍ مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِم وَأَحْوَالِ أَنْفُسِهِم وَمُعَامَلَتِهِم مَعَ غَيرِهِم من أَنْبِيَائِهِم وَأَمْثَالِهِم حَتَّى جَمَعَتْ خَطَايَاهُم جَمِيعَ جِهَاتِ الخَطَايَا الثَّلَاثِ، فَكَأَنَّهُم ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ: صِنْف بَدَّلُوا، وَصِنْف اقْتَصَدُوا، وَصِنف أَحْسَنُوا))[٢].

٢. ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[سورة البقرة: ١١٣].

يَجُوزُ تَذكِيرُ الفِعلِ وَتَأْنِيثُهُ مَعَ (اليَهُود وَالنَّصَارَى) فَيُقَالُ: قَالَ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى وَقَالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى، لِأَنَّهُمَا اسْمُ جِنْسٍ جَمْعِيٍّ، حَمْلًا عَلَى مَعنَى الجَمْعِ أَو الجَمَاعَةِ[٣]. فِي حِين أَنَّ البِقَاعِيَّ جَعَلَ اخْتِيَارَ التَّأنيثِ هُنَا غَايَتُهُ إِضْفَاءُ الضَّعْفِ عَلَى قَوْلِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ قَالَ: ((قَالَ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ﴾ أَنَّث فِعْلَهُم لِضَعْفِ قَوْلِهِم))[٤].

٣. ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ

(١) ينظر: السبعة في القراءات: ١٥٧، ومعاني القراءات: ١/ ٤٢٦، وحجة القراءات: ٩٧، والكشف والبيان: ١/ ٢٠٢، وتفسير البغوي: ١/ ١٢١، وزاد المسير: ١/ ٦٩.

(٢) نظم الدرر: ١/ ٣٩٦.

(٣) ينظر: إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٤، والجامع لأحكام القرآن: ٩/ ١٧٦.

(٤) نظم الدرر: ٢/ ١١٥.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣].

يَجُوزُ فِي (الرُّسُل) التَّذْكِيرُ حَمْلًا عَلَى الجَمْعِ وَالتَّأْنِيثُ حَمْلًا عَلَى الجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّهُ جَمْعُ تَكْسِيرٍ، وَوَجَدَ البِقَاعِيُّ أَنَّ التَّعْبِيرَ بِاسْمِ الإِشَارَةِ الدَّالِّ عَلَى المؤَنَّثِ فِيهِ إِشَارَةٌ وَتَوْطِئَةٌ لِمَا يَأْتِي مِن اخْتِلَافِ الأُمَمِ فِيمَا بَعْدُ، وَمِن ثَمَّ نَقَلَ أَنَّ اسْمَ الإِشَارَةِ المؤَنَّثَ يَدُلُّ عَلَى رُتْبَةٍ أَدْنَى مِن رُتْبَةِ الذُّكُورِ، فَفِيهِ إِشْعَارٌ بِرُتْبَةِ الاخْتِلَافِ وَالانْقِطَاعِ المَلَازِمَيْنِ لِجَمَاعَةِ الإِنَاثِ، فِي حِينِ أَنَّ جَمَاعَةَ الذُّكُورِ المعَبَّرَ عَنْهُم بِاسْمِ الإِشَارَةِ (أُوْلَئِكَ) يَتَّصِفُونَ بِالثَّبَاتِ وَالدَّوَامِ؛ قَالَ: ((التَّعْبِيرُ بِـ(تِلْكَ) الَّتِي هِيَ أَدَاةُ التَّأْنِيثِ دُونَ (أُولَئِكَ) الَّتِي هِيَ إِشَارَةُ المذَكَّرِ تَوْطِئَةٌ وإِشَارَةٌ لِمَا يُذْكَرُ بَعْدُ مِن اخْتِلَافِ الأُمَمِ بَعْدَ أَنْبِيَائِهَا،...، يَقُولُ فِيهِ النُّحَاةُ إِشَارَةً لِجَمَاعَةِ المؤَنَّثِ وَإِنَّمَا هُوَ فِي العَرَبِيَّةِ لِجَمَاعَةٍ ثَانِيَةٍ فِي الرُّتْبَةِ، لِأَنَّ التَّأْنِيثَ أَخَذَ الثَّوَانِي عَن أَوَّلِيَةٍ تُنَاسِبُه فِي المعْنَى وَتُقَابِلُهُ فِي التَّطَرُّقِ،...، وَمِن لَسَنِ العَرَبِ وَإِشَارَةِ تَأْسِيسِ كَلِمِهَا أَنَّ المعْنَى مَتَى أُرِيدَ إِرْفَاعُهُ أُطْلِقَ عَن عَلَامَةِ الثَّانِي فِي الرُّتْبَةِ وَإِشَارَتِه، وَمَتَى أُرِيدَ إِنْزَالُهُ قُيِّدَ بِعَلَامَةِ الثَّانِي وَإِشَارَتِه،...، فَفِي ضِمْنِ هَذِهِ الإِشَارَةِ لِأُولِي التَّنَبُّهِ إِشْعَارٌ بِمَا تَتَضَمَّنُهُ الآيَةُ مِن الإِخْبَارِ النَّازِلِ عَن رُتْبَةِ الثَّبَاتِ وَالدَّوَامِ إِلَى رُتْبَةِ الاخْتِلَافِ وَالانْقِطَاعِ كَمَا أَنَّه لَمَّا كَانَ الذِّكْرُ وَاقِعًا فِي مَحَلِّ إِعْلَاءٍ فِي آيَةِ الأَنْعَامِ قِيلَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [سورة الأنعام: ٩٠]))[٥]. وَقَد تَحَدَّثَ عَن دَلَالَةِ تَأْنِيثِ الفِعْلِ مَعَ لَفْظِ (الرُّسُل) فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِن كِتَابِهِ (نَظْمِ الدُّرَرِ)، وَذَلِكَ فِي كَلَامِهِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ

(٥) نظم الدرر: ٤/ ١ -٢.

لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [سورة الروم: ٩]، إذْ رَأَى في مَجِيْءِ الفِعْلِ (جَاءَتْهم) مُؤَنَّثًا إشَارَةً إلَى ضَعْفِ عُقُولِهم بتَكْذِيبِهم الرُّسُلَ؛ قَالَ: ((أَخْبَرَ أَنَّهُ أَرْسَلَ إلَيْهِم الدُّعَاةَ يُنَبِّهُونَهُم من رقْدَتِهم، وَيُنْقِذُونَهُم من غَفْلَتِهم، فَكَانَ التَّقْدِيرُ: فَضَلُّوا عَن المَنْهَجِ الوَاضِحِ، وَعُمُوا عَن السَّبِيلِ الرَّحْبِ، وَزَاغُوا عَن طَرِيقِ الرَّبِّ، فَأَرْسَلْنَا إلَيهم الرُّسُلَ، فَعَطَفَ عَلَيْهِ قَولَهُ مُشيرًا بتَأْنِيثِ الفِعْلِ إلَى ضَعْفِ عُقُولِهم بتَكذِيبِهم الرُّسُلَ كَمَا تَقَدَّمَ إيْضَاحُه عِنْدَ ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣]))[٦]. يَرَى البِقَاعِيُّ في تَأْنِيثِ (الرُّسُل)، في هَذِين المَوْضِعَين، دَلَالَةً عَلَى ضَعْفِ عُقُولِ مَن أُرْسِلُوا إلَيْهِم.

٤. ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[سورة آل عمران: ٢٥].

يَرَى النُّحَاةُ أَنَّ الأَوْلَى، في تَرْكِيبِ الإِضَافَةِ، مُرَاعَاةُ المُضَافِ عِنْدَ التَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيثِ، فَيُقَالُ: قُطِعَ بَعْضُ أَصَابِعِهِ، وَشَمْسُ العَقْلِ مَكْسُوفَةٌ بِطَوْعِ الهَوَى، إلَّا إذَا كَانَ المُضَافُ لَفْظَ (كُلٍّ) فَالأَفْصَحُ التَّأْنِيثُ عِنْدَئِذٍ، وَمِن ذَلِكَ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ [سورة آل عمران: ٣٠]، إذْ جَاءَ الفِعْلُ (تَجِد) مُؤَنَّثًا[٧]. وَلَفْظُ (كُلّ) مُذَكَّرٌ، وَلَكِنَّهُ اكْتَسَبَ التَّأْنِيثَ، في الآيَةِ الكَرِيمَةِ، من إضَافَتِهِ إلَى (نَفْس)؛ وَمِن ثَمَّ يَجُوزُ مَعَهُ تَذْكِيرُ الفِعْلِ حَمْلًا عَلَى لَفْظِهِ وَتَأْنِيثُهُ حَمْلًا عَلَى إضَافَتِهِ إلَى مُؤَنَّثٍ.

وَقَد وَجَّهَ البِقَاعِيُّ تَأْنِيثَ الفِعْلِ (وُفِّيت) هُنَا بِأَنَّهُ من بَابِ مُرَاعَاةِ التَّذكِيرِ في لَفْظِ (كُلّ)، وَوَجَدَ في هَذَا التَّأْنِيثِ إشَارَةً إلَى إحَاطَةِ اللهِ تَعَالَى بالأَفْعَالِ وَإِنْ كَانَتْ في غَايَةِ الصِّغَرِ؛ قَالَ: ((وَأَنَّثَ الفِعْلَ مَعَ جَوَازِ التَّذْكِيرِ

(٦) نظم الدرر: ١٥/ ٥٢.

(٧) ينظر: توضيح المقاصد والمسالك: ٢/ ٧٩٥-٧٩٦، وشرح الأشموني: ٢/ ١٣٦، وشرح التصريح: ١/ ٦٨٨، وحاشية الصبان: ٢/ ٣٧٢ -٣٧٣، وجامع الدروس العربية: ٣/ ٢١١.

مُرَاعَاةً لِلَفْظِ (كُلّ) إِشَارَةً إِلَى الإِحَاطَةِ بِالأَفْعَالِ وَلَوْ كَانَتْ فِي غَايَةِ الحَقَارَةِ، وَرَاعَى مَعْنَى (كُلّ) لِلْوَفَاءِ بِالمَعْنَى مَعَ مُوَافَقَةِ الفَوَاصِلِ))[٨].

٥. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[سورة النساء: ٤٠].

لَحِقَتْ تَاءُ التَّأْنِيثِ الفِعْلَ (تَكُ) عَلَى الرَّغْمِ مِن أَنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ فِي الظَّاهِرِ عَلَى (مِثْقَال). وَوَجْهُ تَأْنِيثِهِ أَنَّ (مِثْقَال) أُضِيفَ إِلَى مُؤَنَّثٍ فَاكْتَسَبَ مِنْهُ التَّأْنِيثَ[٩]، أَو مُرَاعَاةً لِلمَعْنَى لِأَنَّ (مِثْقَال) مَعْنَاهُ: زِنَة[١٠]، أَو مُرَاعَاةً لِتَأْنِيثِ الخَبَرِ[١١].

فِي حِينِ ذَهَبَ البِقَاعِيُّ إِلَى أَنَّ تَأْنِيثَهُ جَاءَ لِإِضَافَتِهِ إِلَى مُؤَنَّثٍ (ذَرَّة)، وَلِغَرَضِ تَحْقِيرِ مِقْدَارِ المِثْقَالِ وَتَصْغِيرِهِ، لِيُفْهَمَ أَنَّ مَا فَوْقَهُ أَوْلَى بِالتَّضْعِيفِ مِن بَابِ الأَوْلَى؛ قَالَ: ((وَأَنَّثَهُ لِإِضَافَتِهِ إِلَى مُؤَنَّثٍ، وَتَحْقِيرًا لَهُ، لِيُفْهَمَ تَضْعِيفُ مَا فَوْقَهُ مِن بَابِ الأَوْلَى))[١٢]. وَقَد أَكَّدَ البِقَاعِيُّ خُرُوجَ التَّأْنِيثِ إِلَى دَلَالَةِ التَّحْقِيرِ وَالتَّقْلِيلِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مُشَابِهٍ، وَذَلِكَ عِنْدَ حَدِيثِهِ عَن قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾؛ إِذ قَالَ فِي تَوجِيهِ تَأْنِيثِ الضَّمِيرِ: (إِنَّهَا) الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يُفْهَمَ مِن الآيَةِ أَنَّهُ يُرَادُ بِهِ: (مِثْقَالُ ذَرَّة) أَو (العَمَل)؛ قَالَ: ((وَعَبَّرَ بِمِثْقَالِ الحَبَّةِ لِأَنَّهُ أَقَلُّ مَا يَخْطُرُ غَالِبًا بِالبَالِ،...، ((إِنَّهَا)) أَي العَمَل، وَأَنَّثَ لِأَنَّهُ فِي مَقَامِ التَّقْلِيلِ وَالتَّحْقِيرِ، وَالتَّأْنِيثُ أَوْلَى بِذَلِكَ، وَلِأَنَّهُ يُؤَوَّلُ بِالطَّاعَةِ وَالمَعْصِيَةِ وَالحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ))[١٣]. وَقَرِيبٌ مِن

(٨) نظم الدرر: ٤/ ٣٠٧.
(٩) ينظر: الكشاف: ١/ ٥١١، وأنوار التنزيل: ٢/ ٧٥، ومدارك التنزيل: ١/ ٣٥٨، والبحر المحيط: ٣/ ٦٤٣، والدر المصون: ٣/ ٦٨٢، وروح المعاني: ٣/ ٣٢، ومحاسن التأويل: ٣/ ١١٢.
(١٠) ينظر: البحر المحيط: ٣/ ٦٤٣، والدر المصون: ٣/ ٦٨٢، والجواهر الحسان: ٢/ ٢٣٧، وروح المعاني: ٣/ ٣٢.
(١١) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٢/ ١٧٧، ومحاسن التأويل: ٣/ ١١٢.
(١٢) نظم الدرر: ٥/ ٢٨٢.
(١٣) نظم الدرر: ١٥/ ١٧١.

هَذَا السِّيَاقِ القُرْآنِيِّ الكَرِيمِ مَا نَجِدُهُ فِي كَلَامِهِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٤٧]، إِذْ إِنَّ الضَّمِيرَ الدَّالَّ عَلَى المؤَنَّث فِي (بِهَا) يَعُودُ عَلَى (مِثْقَال) المذَكَّر، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى الحَبَّةِ(١٤)، أَو لِأَنَّ (مِثْقَال) اكْتَسَبَ التَّأْنِيثَ من إِضَافَتِهِ إِلَى مُؤَنَّثٍ(١٥)، وَذَهَبَ البِقَاعِيُّ إِلَى أَنَّ عَوْدَةَ الضَّمِيرِ مُؤَنَّثًا عَلَى (مِثْقَال حَبَّة) سَوَّغَهُ إِضَافَةُ المِثْقَالِ إِلَى مُؤَنَّثٍ، وَغَرَضُهُ تَحْقِيرُ المِثْقَالِ وَالعَمَلِ وَالإِشَارَةُ إِلَى قِلَّتِهِ وَصِغَرِهِ؛ قَالَ: ((وَزَادَ فِي تَحْقِيرِهِ بِضَمِيرِ التَّأْنِيثِ لِإِضَافَتِهِ إِلَى المؤَنَّثِ فَقَالَ: ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ بِمَا لَنَا من العَظَمَةِ فِي العِلْمِ وَالقُدْرَةِ وَجَمِيعِ صِفَاتِ الكَمَالِ فَحَاسَبْنَاهُ عَلَيْهَا))(١٦).

وَمِثْلُ هَذَا مَا نَجِدُهُ عِنْدَ حَدِيثِهِ عَن قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[سورة المائدة: ٦٤]، إِذْ قَالَ فِي إِلْحَاقِ تَاءِ التَّأْنِيثِ بِالفِعْلِ (قَالَت): ((وَلَمَّا لَمْ تَزَلِ الدَّلَائِلُ عَلَى إِبْطَالِ دَعْوَى أَهْلِ الكِتَابِ فِي البُنُوَّةِ وَالمحَبَّةِ تَقُومُ،...، قَالَ تَعَالَى مُعْجِبًا من عَامَّتِهِم بَعْدَ تَعْيِينِ خَاصَّتِهِم، مُعْلِمًا بِأَنَّهُم لَمْ يَقْنَعُوا بِالسُّكُوتِ عَنِ المنْكَرِ حَتَّى تَكَلَّمُوا بِأَنْكَرِهِ، مُشِيرًا إِلَى سُفُولِ رُتْبَتِهِم وَدَنَاءَةِ مَنْزِلَتِهِم بِأَدَاةِ التَّأْنِيثِ: ((وَقَالَت اليَهُودُ)) مُعَبِّرِينَ عَنِ البُخْلِ وَالعَجْزِ جُرْأَةً وَجَهْلاً بِأَنْ قَالُوا ذَاكِرِينَ اليَدَ لِأَنَّهَا مَوْضِعُ القُدْرَةِ وَإِفَاضَةِ الجُودِ وَالنُّصْرَةِ))(١٧).

٦. ﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا

(١٤) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٢/ ٢٠٥.
(١٥) ينظر: الكشاف: ٣/ ١٢٠، ومفاتيح الغيب: ٢٢/ ١٤٩، و أنوار التنزيل: ٤/ ٥٣، ومدارك التنزيل: ٢/ ٤٠٧، وإرشاد العقل السليم: ٦/ ٧١.
(١٦) نظم الدرر: ١٢/ ٤٢٩.
(١٧) نظم الدرر: ٦/ ٢١٨.

﴿دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[سورة الأعراف: ٣٨-٣٩].

ذَهَبَ البِقَاعِيُّ إِلَى أَنَّ دُخُولَ تَاءِ التَّأْنِيثِ عَلَى الفِعلِ (خَلَت) فِيهِ دَلالَةٌ عَلَى ضَعْفِ عُقُولِهِم؛ قَالَ: «ادْخُلُوا كَائِنِينَ ((فِي أُمَمٍ)) أَي فِي جُمْلَةِ جَمَاعَاتٍ وَفِرَقٍ أَمَّ بَعْضُهَا بَعْضًا؛ ثُمَّ وَصَفَهُم دَالًّا بِتَاءِ التَّأْنِيثِ عَلَى ضَعْفِ عُقُولِهِم فَقَالَ: ((قَد خَلَت))»[18].

وَقَد أَعَادَ البِقَاعِيُّ الكَلامَ عَلَى التَّركِيبِ نَفْسِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِن تَفْسِيرِهِ، وَوَجَّهَهُ التَّوْجِيهَ الدَّلالِيَّ نَفْسَهُ، وَذَلِكَ فِي حَدِيثِهِ عَن قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾[سورة فصلت: ٢٥]؛ إِذْ وَجَدَ فِي تَأْنِيثِ الفِعلِ (خَلَت) دَلالَةً عَلَى تَحْقِيرِهِم؛ قَالَ: ((وَلَمَّا عَبَّرَ عَنْهُم بِمَا يَقْتَضِي تَعظِيمَهُم بِأَنَّهُم مَقْصُودُونَ، حَقَّرَهُم بِضَمِيرِ التَّأْنِيثِ فَقَالَ: ((قَد خَلَت)) أَي لَم تَتَّعِظ أُمَّةٌ مِنْهُم بِالأُخْرَى))[19].

٧. ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[سورة الأنفال: ٦٠ -٦١].

أُعِيدَ الضَّمِيرُ عَلَى (السَّلْم) فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ، مُؤَنَّثًا. وَوَجْهُ تَأْنِيثِهِ أَنَّ (السَّلْمَ) مِمَّا يَجُوزُ فِيهِ، عِندَ العَرَبِ، التَّذْكِيرُ وَالتَّأْنِيثُ[20]، أَو أَنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ عَلَى

(١٨) نظم الدرر: ٧/ ٣٩٧.

(١٩) نظم الدرر: ١٧/ ١٧٦.

(٢٠) ينظر: معاني القرآن للفراء: ١/ ٤١٦، ومعاني القرآن للأخفش: ١/ ٣٥٢، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٠٣، وزاد المسير: ٢/ ٢٢٢، والتبيان في إعراب القرآن: ٢/ ٦٣٠، والجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٣٩، والدر المصون: ٢/ ٣٥٨،

مَحْذُوفٍ مَفْهُومٍ مِن الكَلَام تَقْدِيرُهُ: الفَعْلَةُ أَو الجَنْحَةُ[٢١]، أَو أَنَّهَا تُؤَنَّثُ حَمْلًا عَلَى نَقِيضِهَا: الحَرْب[٢٢]، أَو حَمْلًا عَلَى مَعْنَى المَسَالَمَة وَالهُدْنَة[٢٣]. وَيَرَى البَقَاعِيُّ أَنَّ (السَّلْم) مُذَكَّرٌ يَجُوزُ تَأْنِيثُهُ، وَأَنَّ اخْتِيَارَ التَّأْنِيثِ هُنَا جَاءَ لِلإِشَارَةِ إِلَى تَقْلِيلِ مُدَّةِ السِّلْمِ وَالاقْتِصَارِ عَلَى أَقَلِّ مُدَّةٍ مُمْكِنَةٍ، وَانْطَلَقَ فِي هَذَا الفَهْمِ مِن النَّظَرِ إِلَى المؤَنَّث عَلَى أَنَّهُ أَقَلُّ مِن المذَكَّر؛ قَالَ: ((وَلَمَّا كَانَ السَّلْمُ مُذَكَّرًا يَجُوزُ تَأْنِيثُهُ، قَالَ: ((لَهَا)) أَي المصَالَحَة، أَو يَكُونُ تَأْنِيثُهُ بِتَأْنِيثِ ضِدِّهِ الحَرْب، وَكَأَنَّهُ اخْتِيرَ التَّأْنِيثُ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ يُقْتَصَرُ فِيهِ عَلَى أَقَلِّ مَا يُمْكِنُ مِن المدَّة بِحسب الحَاجَة، هَذَا إِذَا كَانَ الصَّلَاحُ لِلْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ))[٢٤]. فَالتَّأْنِيثُ هُنَا، عِنْدَ البِقَاعِيِّ، يَدُلُّ عَلَى تَقْلِيلِ المدَّة الزَّمَنِيَّة.

٨. ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾[سورة هود: ٩٤].

جَاءَ الفعلُ (أَخَذَ) المسْنَدُ إِلَى (الصَّيْحَة)، هُنَا، مُؤَنَّثًا، فِي حِين مَرَّ بِنَا، فِي دَلَالَاتِ التَّذْكِيرِ، قَولُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [سورة هود: ٦٧]، الَّذِي وَرَدَ فِيهِ الفعلُ (أَخَذَ) المسْنَدُ إِلَى (الصَّيْحَة)، أَيْضًا، مُذَكَّرًا غَيرَ مُؤَنَّثٍ. وَقَد وَجَّهَ البِقَاعِيُّ تَذكِيرَ الفعْلِ (أَخَذَ) هُنَاكَ بِأَنَّ غَرَضَهُ الإِشَارَةُ إِلَى قُوَّةِ الصَّيْحَة، فِي حِين وَجَّهَ تَأْنِيثَهُ، هُنَا، مُسْتَنِدًا إِلَى المَوَازَنَةِ بَيْنَ السِّيَاقَيْنِ: السِّيَاق الَّذِي وَرَدَ فِيهِ الفعْلُ (أَخَذ) مُذَكَّرًا، وَالسِّيَاق الَّذِي وَرَدَ فِيهِ الفعْلُ (أَخَذَت) مُؤَنَّثًا، فَتَوَصَّلَ إِلَى أَنَّ (الصَّيْحَة) الَّتِي وَرَدَ الفعْلُ مَعَهَا مُؤَنَّثًا أَضْعَفُ مِن (صَيْحَة ثَمُود) الَّتِي وَرَدَ مَعَهَا الفعْلُ مُذَكَّرًا، قَالَ: ((وكَأَنَّهَا

والباب في علوم الكتاب: ٣/ ٤٧٣.

(٢١) ينظر: معاني القرآن للفراء: ١/ ٤١٦، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٠٣، وزاد المسير: ٢/ ٢٢٢، ومفاتيح الغيب: ١٥/ ٥٠٠، والجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٣٩.

(٢٢) ينظر: الكشاف: ٢/ ٢٣٣، والمحرر الوجيز: ٢/ ٥٤٨، ومفاتيح الغيب: ١٥/ ٥٠٠، وأنوار التنزيل: ٣/ ٦٥، وإرشاد العقل السليم: ٤/ ٣٣، وروح المعاني ٥/ ٢٢٢، ومحاسن التأويل: ٥/ ٣١٧، والتحرير والتنوير: ١٠/ ٥٩.

(٢٣) ينظر: المحرر الوجيز: ٢/ ٥٤٨.

(٢٤) نظم الدرر: ٨/ ٣١٦.

كَانَتْ دُونَ صَيْحَةِ ثَمُود لِأَنَّهُم كَانُوا أَضْعَفَ مِنْهُم فَلِذَلِكَ أَبْرَزَ عَلَامَةَ التَّأْنِيث فِي هَذِهِ دُونَ تِلْكَ))[٢٥]. وَهُوَ يَسْتَدِلُّ عَلَى ذَلِكَ، بِمَجِيءِ الفِعْلِ (أَخَذت)، هُنَا، مُؤَنَّثًا، لِلإِشَارَةِ إِلَى هَذَا المعْنَى.

٩. ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[سورة طه: ١٢٤].

يَقِفُ البِقَاعِيُّ عَلَى جَمَالِيَّاتِ الاخْتِيَارِ القُرْآنِيِّ، بِتَفْضِيلِ النَّصِّ الكَرِيمِ اسْتِعْمَالَ المصْدَرِ المؤَنَّث: (مَعِيشَة)، وَالعُدُولَ عَن اسْتِعْمَالِ المصْدَرِ المذَكَّر: (عَيْش)، لِأَنَّ التَّأْنِيثَ هُنَا مُنَاسِبٌ لِمَعْنَى الضَّعْفِ وَالضِّيقِ الَّذِي تَتَّصِفُ بِهِ حَيَاةُ مَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى؛ قَالَ: ((حَقَّرَهَا سُبْحَانَهُ بِالتَّأْنِيثِ ثُمَّ وَصَفَهَا بِأَفْظَعِ وَصْفٍ وَهُوَ مَصْدَرٌ يَسْتَوِي فِيهِ المذَكَّرُ وَالمؤَنَّثُ وَالجَمْعُ وَغَيرُهُ فَقَالَ: ((ضَنْكًا)) أَي ذَات ضَنْكٍ أَي ضِيقٍ، لِكَوْنِهِ عَلَى ضَلَالٍ وَإِنْ رَأَى أَنَّ حَالَهُ عَلَى غَيرِ ذَلِكَ فِي السَّعَةِ وَالرَّاحَةِ، فَإِنَّ ضَلَالَهُ لَا بُدَّ أَن يُرْدِيَهُ، فَهُوَ ضَنْكٌ لِكَوْنِهِ سَبَبًا لِلضِّيقِ وَآئِلاً إِلَيْهِ))[٢٦]. فَهُوَ يَكْشِفُ، فِي هَذَا النَّصِّ، عَن تَضَافُرِ السِّمَاتِ اللُّغَوِيَّةِ، مُمَثَّلَةً هُنَا بِالتَّأْنِيثِ، فِي رَسْمِ صُورَةٍ مُخِيفَةِ المعَالِمِ لِحَيَاةِ مَن يُعْرِضُ عَن ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى، كَمَا يُشِيرُ إِلَى دِقَّةِ التَّعْبِيرِ القُرْآنِيِّ فِي اخْتِيَارِ الأَلْفَاظِ اللُّغَوِيَّةِ المتَمَثِّلِ بِاسْتِعْمَالِ لَفْظِ: (ضَنْكًا)، وَهُوَ مَصْدَرٌ يَسْتَوِي فِي الوَصْفِ بِهِ المذَكَّرُ وَالمؤَنَّثُ وَالوَاحِدُ وَالاثْنَانُ وَالجَمْعُ[٢٧]، يَدُلُّ عَلَى ضِيقِ العَيْشِ وَعُسْرِهِ وَشِدَّتِهِ، حَتَّى إِنَّ صَاحِبَهُ يَعِيشُ مُضْطَرِبَ البَالِ مَهْمُومَ النَّفْسِ، خَائِفًا مِن الانْتِقَاصِ المادِّيِّ وَطَامِعًا فِي الازْدِيَادِ الدُّنْيَوِيِّ[٢٨]. وَلَعَلَّ مِمَّا يُؤَيِّدُ هَذِهِ الدَّلَالَةَ وَيَصُبُّ فِي تَرْسِيخِهَا وَتَشْخِيصِ مَلَامِحِهَا مَا ارْتَسَمَ فِي أَذْهَانِ المفَسِّرِينَ مِن تَأْوِيلَاتٍ وَصُورٍ لِضَنْكِ العَيْشِ الَّذِي يَدُلُّ فِي الأَصْلِ عَلَى

(٢٥) نظم الدرر: ٩/ ٣٦٧.

(٢٦) نظم الدرر: ١٢/ ٣٦٢.

(٢٧) ينظر: مجاز القرآن ٢/ ٣٢، والكشف والبيان: ٦/ ٢٦٥، والكشاف: ٣/ ٩٥، وزاد المسير ٣/ ١٨٠، ومفاتيح الغيب: ٢٢/ ١١٠، والجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٢٥٨.

(٢٨) ينظر: التحرير والتنوير: ١٦/ ٣٣١.

الضِّيْق[٢٩]. وَمِن ثَمَّ فَقَد وَجَدْنَا مُفَسِّرًا مِثْلَ ابن عَطِيةَ يُفَسِّرُهُ بِالنَّكَدِ الشَّاقِّ من العَيْشِ أَو المَنَازِلِ أَو مَوَاطِنِ الحَرْبِ وَنَحْو هَذَا[٣٠]، كَمَا نَلْمَسُ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الصُّورةِ المؤَرِّقَةِ لِضَنْكِ العَيْشِ أَخَذَتْ أَبْعَادَهَا فِيْمَا أَوْرَدَه الماورديّ (ت٤٥٠هـ) من تَأْوِيلَاتٍ: أَوَّلُهَا: أَنَّهُ الكَسْبُ الحَرَامُ، وَالثَّانِي: العَيْشُ المَنَغَّصُ، وَالثَّالِثُ: عَذَاب القَبْرِ، وَالرَّابِعُ: الطَّعَامُ الضَّرِيعُ وَالزَّقُّومُ فِي جَهَنَّمَ، وَالخَامِسُ: أَنْ يَكْسِبَ المَرْءُ دُوْنَ كِفَايَتِهِ[٣١]. وَلَعَلَّ النَّصَّ الكَرِيمَ، بِإِعْجَازِهِ اللُّغَوِيِّ وَالبَلَاغِيِّ، أَرَادَ هَذِهِ المَعَانِي مُجْتَمِعَةً، مِن بَابِ التَّوَسُّعِ فِي المَعْنَى.

١٠. ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴾ [سورة الحج: ٤٢].

لَفْظُ (القَوْم) مُذَكَّرٌ، وَكَذَا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [سورة الأنعام: ٦٦]. وَلَكِنَّهُ قَد يُؤَنَّثُ حَمْلًا لَهُ عَلَى مَعْنَى الجَمَاعَةِ[٣٢]، أَو عَلَى أَنَّ تَأْنِيثَهُ لُغَةٌ لِبَعْضِ العَرَبِ[٣٣]؛ وَقَد وَرَدَ مُؤَنَّثًا فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى مِن القُرْآنِ الكَرِيمِ، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾[سورة الحج: ٤٢ -٤٢].

وَقَد وَجَّهَ البِقَاعِيُّ تَأْنِيثَ الفِعْلِ مَعَ (القَوْم) فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ بِأَنَّهُ لِتَحْقِيرِ المكَذِّبِينَ؛ قَالَ: ((«فَقَد كَذَّبَتْ» وَأَتَى

(٢٩) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٢/ ١٩٤، ومجاز القرآن ٢/ ٣٢، وغريب القرآن لابن قتيبة: ٢٨٣، وجامع البيان: ١٨/ ٣٩١، ومعاني القرآن وإعرابه: ٣/ ٣٧٨، والكشف والبيان: ٦/ ٢٦٥، والمفردات في غريب القرآن: ٥١٢، و زاد المسير ٣/ ١٨٠، ومفاتيح الغيب: ٢٢/ ١١٠، والجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٢٥٨، وأنوار التنزيل: ٤/ ٤١، ومدارك التنزيل: ٢/ ٣٨٨، وإرشاد العقل السليم: ٦/ ٤٨، وروح المعاني: ٨/ ٥٨٥.

(٣٠) ينظر: المحرر الوجيز: ٤/ ٦٨.

(٣١) ينظر: النكت والعيون ٣/ ٤٣١، وغرائب التفسير: ٢/ ٧٣١.

(٣٢) ينظر: معاني القرآن للفراء: ١/ ١٢٦، وإعراب القرآن للنحاس: ٣/ ٣٠٦، ومشكل إعراب القرآن: ٢/ ٦٢٤، والنكت والعيون: ٥/ ٨٠.

(٣٣) ينظر: مجاز القرآن: ٢/ ١٧٨.

سُبْحَانَهُ بِتَاءِ التَّأْنِيثِ تَحْقِيرًا لِلمُكَذِّبِينَ فِي قُدْرَتِهِ وَإِنْ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ))[٣٤].

كَمَا جَاءَ الفِعْلُ مُؤَنَّثًا أَيْضًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾[سورة ص: ١٢]، وَقَد وَجَّهَ تَأْنِيثَ الفِعْلِ (كَذَّبَت)، هُنَا، بِأَنَّهُ لِغَرَضِ الدَّلَالَةِ عَلَى ضَعْفِ تَكْذِيبِهِم؛ قَالَ: ((وَكَانُوا أَحْقَرَ شَيْءٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ مَعَ شِدَّتِهِم فِي أَنْفُسِهِم، بَيَّنَ ذَلِكَ بِالتَّاءِ الدَّالَّةِ عَلَى الرُّتْبَةِ الثَّانِيَةِ المؤَخَّرَةِ، وَهِيَ رُتْبَةُ التَّأْنِيثِ اللَّازِمِ مِنْهُ الضَّعْفُ فَقَالَ: «كَذَّبَت»))[٣٥]. وَوَصَفَ البِقَاعِيُّ تَأْنِيثَ الفِعْلِ مَعَ قَوْمِ نُوحٍ فِي سُورَةِ القَمَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾سورة القمر: ٩]، بِأَنَّهُ تَحْقِيرٌ لَهُم وَتَهْوِينٌ لِأَمْرِهِم؛ قَالَ: ((وَأَنَّثَ فِعْلَهُم تَحْقِيرًا لَهُم وَتَهْوِينًا لِأَمْرِهِم فِي جَنْبِ قُدْرَتِهِ))[٣٦].

وَجَاءَ الفِعْلُ (كَذَّبَت) مُؤَنثًا أَيْضًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[سورة غافر: ٥]، وَتَأْنِيثُ فِعْلِهِم هُنَا يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِهِم عَن المقَاوَمَةِ؛ قَالَ: ((قَالَ مُشِيرًا بِتَأْنِيثِ الفِعْلِ إِلَى ضَعْفِهِم عَن المقَاوَمَةِ، وَتَلَاشِيهِم عِنْدَ المصَادَمَةِ، وَإِنْ كَانُوا فِي غَايَةِ القُوَّةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِم: «كَذَّبَت»))[٣٧].

وَقَد جَاءَ الفِعْلُ (كَذَّب) مُسْنَدًا إِلَى لَفْظِ (ثَمُود)، وَهُوَ مُؤَنَّثٌ أَيْضًا، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَىٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ۖ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [سورة الشمس: ٩-١٥]، لِبَيَانِ ضَعْفِ تَكْذِيبِهِم وَسُفُولِ هِمَمِهِم؛ قَالَ: ((أَنَّثَ فِعْلَهُم لِضَعْفِ أَثَرِ تَكْذِيبِهِم لِأَنَّ كُلَّ سَامِعٍ لَهُ يَعْرِفُ ظُلْمَهُم فِيهِ لِوُضُوحِ آيَتِهِم وَقَبِيحِ غَايَتِهِم، وَمَا لَهُم بِسُفُولِ الهِمَمِ وَقَبَاحَةِ

(٣٤) نظم الدرر: ١٣/ ٦٠.
(٣٥) نظم الدرر: ١٦/ ٣٤٠. وينظر أيضا: نظم الدرر: ١٩/ ١٢٣.
(٣٦) نظم الدرر: ١٩/ ١٠٢.
(٣٧) نظم الدرر: ١٧/ ٨.

الشِّيَم))[٣٨].

١١. ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: ٤١].

يَذْكُرُ اللُّغَوِيُّونَ أَنَّ (العَنْكَبُوتَ) مُؤَنَّثَةٌ، قَد يُذَكِّرُهَا بَعْضُ العَرَبِ[٣٩]. وَقَد بَيَّنَ البِقَاعِيُّ أَنَّ اخْتِيَارَ النَّصِّ القُرْآنِيِّ التَّعْبِيرَ عَنْهَا بِالتَّأْنِيثِ، فَقَالَ: (اتَّخَذَت) وَلَمْ يَقُلْ: (اتَّخَذَ)، لِأَنَّ السِّيَاقَ الَّذِي وَرَدَتْ فِيهِ سِيَاقُ ذَمٍّ فَقَد ذَمَّهُم بِاتِّخَاذِهِم أَوْلِيَاءَ لَا حَوْلَ لَهُم وَلَا قُوَّةَ وَشَبَّهَهُم بِالعَنْكَبُوتِ فِي الضَّعْفِ، فَنَاسَبَ ذَلِكَ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا مُؤَنَّثَةً، لِلدَّلَالَةِ عَلَى ضَعْفِهَا؛ قَالَ: ((عَبَّرَ عَنْهَا بِالتَّأْنِيثِ وَإِنْ كَانَتْ تُقَالُ بِالتَّذْكِيرِ تَعْظِيمًا لِضَعْفِهَا، لِأَنَّ المَقَامَ لِضَعْفٍ مَا تَبْنِيهِ فَقَالَ: ﴿ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ أَي تَكَلَّفَت أَخْذَهُ فِي صَنْعَتِهَا لَهُ لِيَقِيَهَا الرَّدَى، وَيَحْمِيَهَا البِلَا، كَمَا تَكَلَّفَ هَؤُلَاءِ اصْطِنَاعَ أَرْبَابِهِم لِيَنْفَعُوهُم، وَيَحْفَظُوهُم بِزَعْمِهِم وَيَرْفَعُوهُم، فَكَانَ ذَلِكَ البَيْتُ مَعَ تَكَلُّفِهَا فِي أَمْرِهِ، وَتَعَبِهَا الشَّدِيدِ فِي شَأْنِهِ، فِي غَايَةِ الوَهْنِ))[٤٠].

وَهذِهِ الْتِفَاتَةٌ دَقِيقَةٌ مِن البِقَاعِيِّ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّصَّ الكَرِيمَ مَا يَفْتَأُ يَكْشِفُ لِمَنْ يَتَدَبَّرُه عَن أَسْرَارِ جَمَالِيَّةٍ وَنُكَتٍ بَلَاغِيَّةٍ لَطِيفَةٍ فِي غَايَةِ الأَهَمِّيَةِ وَالجِدَّةِ.

١٢. ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[سورة الروم: ١-٥].

يُلْحَظُ هُنَا أَنَّ النَّصَّ الشَّرِيفَ عَبَّرَ عَن (الرُّوم) بِصُورَتَيْن؛ عَبَّرَ عَنْهُم فِي الصُّورَةِ الأُولَى بِالتَّأْنِيثِ فَقَالَ: (غُلِبَت

(٣٨) نظم الدرر: ٢٢/ ٨٠.

(٣٩) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٢/ ٣١٧، وإعراب القرآن للنحاس: ٣/ ١٧٥، وتهذيب اللغة (عنكب): ٣/ ١٩٨، والكشف والبيان: ٧/ ٢٨٠، وزاد المسير: ٣/ ٤٠٧، ولسان العرب (عنكب): ١/ ٦٣٢، وتاج العروس (عنكب): ٣/ ٤٤٦.

(٤٠) نظم الدرر: ١٤/ ٤٤١-٤٤٢.

الرُّومُ)، وَعَبَّرَ عَنْهُم في الصُّورَةِ الثَّانِيَةِ بالتَّذْكِيرِ فَقَالَ: ﴿ سَيَغْلِبُونَ ﴾، مِمَّا يَعْنِي أَنَّ النَّصَّ القُرْآنِيَّ عَدَلَ عَن التَّأْنِيثِ الَّذِي اخْتَارَهُ ابْتِدَاءً؛ إِذْ يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَمِرَّ التَّعْبِيرُ عَلَى الوَتِيرَةِ نَفْسِهَا، فَيُقَال في غَيْرِ القُرآنِ الكَرِيمِ: غُلِبَتِ الرُّومُ وَهِيَ مِن بَعْدِ غَلَبَتِهَا سَتَغْلِبُ، وَلَكِنَّهُ تَرَكَهُ إِلَى التَّذْكِيرِ، وَقَد الْتَفَتَ البِقَاعِيُّ إِلَى فَنِّيَّةِ هَذَا التَّعْبِيرِ وَالعُدُولِ عَن التَّأْنِيثِ إِلَى التَّذْكِيرِ وَدَلالَةِ كُلٍّ مِنْهُمَا في سِيَاقِهِ؛ فَقَالَ: ((وَلَمَّا ابْتَدَأَ سُبْحَانَهُ بِمَا أَوْجَبَهُ لِلرُّومِ مِن القَهْرِ بِتَبْدِيلِهِم، مُعَبِّرًا عَنْهُم بِأَدَاةِ التَّأْنِيثِ مُنَاسَبَةً لِسُفُولِهِم، أَتْبَعَهُ مَا صَنَعَهُ مَعَهُم لِتَفْرِيجِ المُحْسِنِينَ مِن عِبَادِهِ الَّذِينَ خَتَمَ بِهِم الأُمَمَ وَنَسَخَ بِمِلَّتِهِم المِلَلَ، وَأَدَالَهُم عَلَى جَمِيعِ الدُّولِ، فَقَالَ مُعَبِّرًا بِمَا يَقْتَضِي الاسْتِعْلَاءُ مِن ضَمِيرِ الذُّكُورِ العُقَلَاءِ))[41]. يَكْشِفُ البِقَاعِيُّ، هُنَا، عَن سِرٍّ بَلَاغِيٍّ وَإِعْجَازِيٍّ في ضَوْءِ مَا تُتِيحُهُ اللُّغَةُ مِن حُرِّيَّةٍ وَجَوَازَاتٍ تَعْبِيرِيَّةٍ، في التَّأْنِيثِ وَالتَّذْكِيرِ، تَمَاهَتْ فِيهِ اللُّغَةُ وَإِمْكَانَاتُهَا التَّعْبِيرِيَّةُ بِالدَّلَالَةِ وَغَايَاتِ النَّصِّ وَمَقَاصِدِهِ عَلَى نَحْوٍ لَا يُدَانِيهِ تَعْبِيرٌ آخَرُ، إِذْ يَأْتِي التَّعْبِيرُ بِالمُؤَنَّثِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى حَالَةِ هَزِيمَتِهِم وَانْكِسَارِهِم، في حِينِ يَأْتِي التَّعْبِيرُ بِالمُذَكَّرِ لِلدَّلَالَةِ عَن غَلَبِهِم وَانْتِصَارِهِم.

١٣. ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ [سورة الروم: ٥٢ -٥٤].

اسْتَعْمَلَ النَّصُّ الكَرِيمُ المَصْدَرَ المؤَنَّثَ (ضَلَالَة) مَعَ وُجُودِ المَصْدَرِ المجَرَّدِ مِن التَّاءِ (ضَلَال)؛ قَالَ الرَّازِي: ((وَالْعَرَبُ تُلْحِقُ هَذِهِ الْهَاءَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَصَادِرِ وَتَحْذِفُهَا يَقُولُونَ: ضَلَالٌ وَضَلَالَةٌ، وَسَفَاهٌ وَسَفَاهَةٌ، وَلَذَاذٌ وَلَذَاذَةٌ، وَرَضَاعٌ وَرَضَاعَةٌ))[42]. أَي

(٤١) نظم الدرر: ١٥/ ٥ -٦.

(٤٢) مفاتيح الغيب: ١٣/ ١٤٦، وينظر: اللباب في علوم الكتاب: ٨/ ٤٢٧، وبصائر ذوي التمييز: ٣/ ٤٨١.

أَنَّ (الضَّلَالَةَ) مَصْدَرٌ مِثْلُ (الضَّلَالِ)، وتَأْنِيثُهَا لَفْظِيٌّ مَحْضٌ، لأن الْعَرَبَ يَسْتَشْعِرُونَ التَّأْنِيثَ غَالِبًا فِي أَسْمَاءِ أَجْنَاسِ الْمَعَانِي، مِثْلِ الْغَوَايَةِ وَالسَّفَاهَةِ، فَالتَّاءُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الأَلْفَاظِ لِمُجَرَّدِ تَأْنِيثِ اللَّفْظِ، وَالتَّاءُ فِيهَا لَيْسَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى المفْرَدِ أو الْوَحْدَةِ[٤٣]. وَيَرَى البِقَاعِيُّ أَنَّ العُدُولَ عَن المصْدَرِ المذَكَّرِ إِلَى المؤَنَّثِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَدْنَى ضَلَالٍ مُحْتَمَلٍ؛ قَالَ: ((وَمَا أَنْتَ تُجَدِّدُ هِدَايَةَ العُمْيِ ((عَن ضَلَالَتِهِم)) إِذَا ضَلُّوا عَن الطَّرِيقِ فَأَبْعَدُوا وَإِنْ كَانَ أَدْنَى ضَلَالٍ -بِمَا أَشَارَ إِلَيْهِ التَّأْنِيثُ، وَإِنْ أَتْعَبْتَ نَفْسَكَ فِي نَصِيحَتِهِم))[٤٤].

١٤. ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾[سورة الروم: ٥٦-٥٧].

(٤٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٨ -ب/ ١٩٢.

(٤٤) نظم الدرر: ١٥/ ١٢٦.

قَرَأَ عَاصِمٌ وَالأَعْمَشُ بِالْيَاءِ بِالتَّذْكِيرِ، لِوُجُودِ فَاصِلٍ[٤٥]، وَلأَنَّ تَأْنِيثَ (مَعْذِرَتهم) غَيْرُ حَقِيقِيٍّ[٤٦]، فِي حِين قَرَأَ ابْنُ كثير وَأَبُو عَمْرٍو (لَا تَنْفَع) بِالتَّاءِ[٤٧]، عَلَى اللَّفْظِ[٤٨]، أَي لِأَنَّ (مَعْذِرَتهم) مُؤَنَّثٌ لَفْظِيٌّ. وَيَرَى البِقَاعِيُّ أَنَّ قِرَاءَةَ التَّأْنِيثِ أَبْلَغُ مِن قِرَاءَةِ التَّذْكِيرِ، لِأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى أَقَلِّ عُذْرٍ وَأَصْغَرِ مَعْذِرَةٍ، وَإِذَا لَمْ يُقْبَلِ الاعْتِذَارُ الكَثِيرُ فَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الاعْتِذَارَ القَلِيلَ لَا يُقْبَلُ أَيْضًا مِن بَابِ أَوْلَى؛ قَالَ: ((وَالعِبَارَةُ شَدِيدَةٌ جِدًّا مِن حَيْثُ كَانَت تُعْطِي أَنَّ مَن وَقَعَ مِنْهُ ظُلْمٌ مَا يَوْمًا مَا كَانَ هَذَا حَالُهُ، وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَكُونُ مِنْهُم مَعَاذِيرُ، وَتَرَقُّقٌ

(٤٥) ينظر: المحرر الوجيز: ٤/ ٣٤٤، والتبيان في إعراب القرآن: ٢/ ١٠٤٢، وأنوار التنزيل: ٤/ ٢١١، وإرشاد العقل السليم: ٧/ ٦٦.

(٤٦) ينظر: زاد المسير: ٣/ ٤٢٨، والتبيان في إعراب القرآن: ٢/ ١٠٤٢، وأنوار التنزيل: ٤/ ٢١١، وإرشاد العقل السليم: ٧/ ٦٦.

(٤٧) ينظر: السبعة في القراءات: ٥٠٩، وروح المعاني ١١/ ٦٠.

(٤٨) ينظر: التبيان في إعراب القرآن: ٢/ ١٠٤٢.

كَثِيرٌ، وَتَذَلُّلٌ كَبِيرٌ، فَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ شَيْءٌ- هَذَا -عَلَى قِرَاءَةِ الجَمَاعَةِ بِتَأْنِيثِ الفِعْلِ وَهِيَ أَبْلَغُ مِن قِرَاءَةِ الكُوفِيِّينَ بِتَذْكِيرِهِ بِتَأْوِيلِ العُذْرِ، لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَنْفَعِ الاعْتِذَارُ الكَثِيرُ لَمْ يَنْفَعِ القَلِيلُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ المجَرَّدُ وَلَا عَكْس، وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ قِرَاءَةُ الجُمْهُورِ مُتَوَجِّهَةً لِلكَفَرَةِ وَقِرَاءَةُ الكُوفِيِّينَ لِلعُصَاةِ مِن المؤْمِنِينَ، فَإِنَّ مِنْهُم مَن يَنْفَعُهُ الاعْتِذَارُ فَيُعْفَى عَنْهُ))[٤٩].

وَيُلْحَظُ هُنَا أَنَّ البِقَاعِيَّ يُوَظِّفُ قِرَاءَتَي الفِعْلِ بِالتَّذْكِيرِ مَرَّةً وَالتَّأْنِيثِ أُخْرَى تَوْظِيفًا دَلَالِيًّا وَبَلَاغِيًّا لَطِيفًا فِي سِيَاقِ الآيَةِ نَفْسِهَا، إِذْ جَعَلَ قِرَاءَةَ التَّأْنِيثِ تَدُلُّ عَلَى الضَّعْفِ وَالقِلَّةِ فَتَكُونُ الآيَةُ مُتَوَجِّهَةً لِلعُصَاةِ مِن المؤْمِنِينَ، فِي حِينِ تَكُونُ قِرَاءَةُ التَّذْكِيرِ مُتَوَجِّهَةً لِلكُفَّارِ لِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ التَّذْكِيرُ مِن قُوَّةٍ وَمُبَالَغَةٍ مُقَارَنَةً بِالتَّأْنِيثِ فِي ذِهْنِ البِقَاعِيِّ.

١٥. ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٥].

يَرَى البِقَاعِيُّ أَنَّ إِلْحَاقَ تَاءِ التَّأْنِيثِ بِالفِعْلِ (تَعَمَّد)، جَاءَ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ فِي قَلْبِ مَن يَتَعَمَّدُ ارْتِكَابَ الإِثْمِ المنْهِي عَنْهُ فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ رَخَاوَةَ الأُنُوثَةِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْهَى نَفْسَهُ عَن الإِثْمِ فَمِن ثَمَّ فَإِنَّ نَفْسَهُ الأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ تَقُودُهُ إِلَى المعَاصِي؛ قَالَ: ((«تَعَمَّدَت قُلُوبُكُم» عَلَى زَوَالِ الحَرَجِ أَيْضًا فِيمَا وَقَعَ بَعْدَ النَّهْيِ عَلَى سَبِيلِ النِّسْيَانِ أَو سَبْقِ اللِّسَانِ، وَدَلَّ تَأْنِيثُ الفِعْلِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَعْتَمِدُهُ بَعْدَ البَيَانِ الشَّافِي إِلَّا قَلْبٌ فِيهِ رَخَاوَةُ الأُنُوثَةِ))[٥٠].

١٦. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴾ [سورة الأحزاب: ٩ -١٠].

(٤٩) نظم الدرر: ١٥/ ١٣٣.

(٥٠) نظم الدرر: ١٥/ ٢٨٩.

الْتَفَتَ البِقَاعِيُّ، هُنَا، إِلَى أَنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ عَبَّرَ بِالتَّأْنِيثِ فَقَالَ: (زَاغَتِ الأَبْصَارُ)، وَلَمْ يُعَبِّرْ بِالتَّذْكِيرِ، كَمَا هِيَ الحَالُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[سورة النجم: ١٧]، لِأَنَّ دَلَالَةَ التَّذْكِيرِ عَلَى القُوَّةِ وَالصَّلَابَةِ وَالعُلُوِّ تُنَافِي مَعْنَى الزَّيْغِ؛ قَالَ: ((وَأَنَّثَ الفِعْلَ وَمَا عُطِفَ عَلَيْهِ لِأَنَّ التَّذْكِيرَ الَّذِي يَدُورُ مَعْنَاهُ عَلَى القُوَّةِ وَالعُلُوِّ وَالصَّلَابَةِ يُنَافِي الزَّيْغَ فَقَالَ: ﴿ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾، أَيْ: مَالَتْ عَنْ سَدَادِ القَصْدِ فِعْلَ الوَالِهِ الجَزِعِ بِمَا حَصَلَ مِنَ الغَفْلَةِ النَّاشِئَةِ عَنِ الدَّهْشَةِ الحَاصِلَةِ مِنَ الرُّعْبِ))[٥١]. وَقَدْ أَعَادَ البِقَاعِيُّ تَوْظِيفَ دَلَالَةِ تَأْنِيثِ الفِعْلِ فِي التَّعْبِيرِ نَفْسِهِ: (زَاغَتِ الأَبْصَارُ) فِي كَلَامِهِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [سورة ص: ٦٢ -٦٣]، إِذْ بَيَّنَ أَنَّ تَأْنِيثَ الفِعْلِ هُنَا جَاءَ مُنَاسِبًا لِوَضْعِ الرِّجَالِ الَّذِينَ فِي النَّارِ وَهُمْ يَبْحَثُونَ عَنْ آخَرِينَ كَانُوا يَحْسَبُونَهُمْ أَشْرَارًا مِثْلَهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ فَقَدُوهُمْ فِي النَّارِ، فَذَهَبَ بِهِمُ الظَّنُّ إِلَى أَنَّهُمْ مَعَهُمْ وَلَكِنَّ أَبْصَارَهُمْ كَلَّتْ عَنْ رُؤْيَتِهِمْ، فَنَاسَبَ هَذِهِ الصُّورَةَ تَأْنِيثُ الفِعْلِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى رَخَاوَةِ أَبْصَارِهِمْ وَضَعْفِهَا؛ قَالَ: ((«اتَّخَذْنَاهُمْ» أَيْ كَلَّفْنَا أَنْفُسَنَا وَعَالَجْنَاهَا فِي أَخْذِهِمْ ((سِخْرِيًّا)) أَيْ نَسْخَرُ مِنْهُمْ وَنَسْتَهْزِئُ بِهِمْ -عَلَى قِرَاءَةِ الكَسْرِ، وَنُسَخِّرُهُمْ أَيْ نَسْتَخْدِمُهُمْ عَلَى قِرَاءَةِ الضَّمِّ، وَهُمْ لَيْسُوا أَهْلًا لِذَلِكَ، بَلْ كَانُوا خَيْرًا مِنَّا فَلَمْ يَدْخُلُوا هُنَا لِعَدَمِ شَرَارَتِهِمْ، وَكَأَنَّهُمْ إِلَى تَجْوِيزِ كَوْنِهِمْ فِي النَّارِ مَعَهُمْ وَمَنْعُهُمْ مِنْ رُؤْيَتِهِمْ أَمْيَلُ، فَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِتَأْنِيثِ الفِعْلِ نَاسِبِينَ خَفَاءَهُمْ عَنْهُمْ إِلَى رَخَاوَةٍ فِي أَبْصَارِهِمْ عَلَى قُوَّتِهَا فِي ذَلِكَ الحِينِ فَقَالُوا: ((أَمْ زَاغَتْ)) أَيْ مَالَتْ مُتَجَاوِزَةً «عَنْهُمْ»))[٥٢].

١٧. ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ

(٥١) نظم الدرر: ١٥/ ٣٠١.

(٥٢) نظم الدرر: ١٦/ ٤١١.

﴿عَوْرَةٌ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [سورة الأحزاب: ١٢ -١٣].

يجُوزُ مَعَ (طَائِفَة) تَذْكِيرُ الفِعْلِ وَتَأْنِيثُهُ، وَقَد وَرَدَ الفِعْلُ مُذَكَّرًا في قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [سورة النساء: ٨١]، فَقَالَ (بَيَّتَ) مُجَرَّدًا من تَاءِ التَّأْنِيثِ، وَلَمْ يَقُلْ (بَيَّتَتْ طَائِفَةٌ)، لِأَنَّ تَأْنِيثَهَا غَيْرُ حَقِيقِيٍّ؛ قَالَ الزَّجَّاجُ: ((كُلُّ تَأْنِيثٍ غَيْرُ حَقِيقِيٍّ فَتَعْبِيرُهُ بِلَفْظِ التَّذْكِيرِ جَائِزٌ، تَقُولُ: قَالَتْ طَائِفَةٌ من أَهْلِ الكِتَابِ، وَقَالَ طَائِفَةٌ من المُسْلِمِينَ لِأَنَّ طَائِفَةً وَفَرِيقًا في مَعْنًى وَاحِدٍ))[٥٣]. وَبَيَّنَ البَقَاعِيُّ أَنَّ تَأْنِيثَ الفِعْلِ (قَالَت) إِشَارَةٌ إِلَى رَخَاوَتِهم وَضَعْفِهم في القَوْلِ وَالعَمَلِ؛ قَالَ: ((وَلَمَّا ذَكَرَ مَا هُوَ الأَصْلُ في نِفَاقِهم وَهُوَ التَّكْذِيبُ، أَتْبَعَهُ مَا تَفَرَّعَ عَلَيْهِ، وَلَمَّا كَانَ تَخْذِيلُهُم بِالتَّرْجِيعِ مَرَّةً، عَبَّرَ عَنْهُ بِالمَاضِي فَقَالَ: ((وَإِذْ قَالَت)) أَنَّثَ الفِعْلَ إِشَارَةً إِلَى رَخَاوَتِهم وَتَأَنُّثِهم في الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ ((طَائِفَة مِنْهُم)) أَي قَوْمٌ كَثِيرٌ من مَوْتَى القُلُوبِ وَمَرْضَاهَا يَطُوفُ بَعْضُهُم بِبَعْضٍ))[٥٤].

١٨. ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ [سورة الصافات: ١ -٤].

يُفَسِّرُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ (الصَّافَّات) بِأَنَّهَا المَلَائِكَةُ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا تَصْطَفُّ في صُفُوفٍ كَصُفُوفِ النَّاسِ لِلصَّلَاةِ، وَهِيَ جَمْعُ جَمْعٍ لِأَنَّهَا جَمْعُ صَافَّةٍ، جَمْعُ صَافٍّ[٥٥]، أَو لِأَنَّهَا تَصُفُّ أَجْنِحَتَهَا

(٥٣) معاني القرآن وإعرابه: ٢/ ٨٢. وينظر: المحتسب: ١/ ٢٩٨، والكشاف: ١/ ٥٤٠، ومفاتيح الغيب: ١٠/ ١٥١، والدر المصون: ٤/ ٥٠، و اللباب في علوم الكتاب: ٦/ ٥١٧، وإرشاد العقل السليم: ٢/ ٢٠٧.

(٥٤) نظم الدرر: ١٥/ ٣٠٦.

(٥٥) ينظر: جامع البيان: ٢١/ ٥٥٧، ومعاني القرآن وإعرابه: ٤/ ٢٩٧، وغريب القرآن للسجستاني: ٣٠١، ومعاني القرآن للنحاس: ٦/ ٧، والكشف والبيان: ٨/ ١٣٨، والنكت والعيون: ٥/ ٣٦، ولطائف الإشارات: ٣/ ٢٢٧، والمفردات في غريب القرآن: ٤٨٦، وغرائب التفسير: ٢/ ٩٦٩، وتفسير البغوي: ٤/ ٢٥، والكشاف: ٤/ ٣٣، وزاد المسير: ٣/ ٥٣٥، ومفاتيح الغيب:

في الهَوَاءِ[٥٦]، وَقِيلَ: هِيَ الطَّيْرُ[٥٧]، وَقِيلَ: الصَّافَّاتُ هِيَ عُبَّادُ السَّمَاءِ، أَو صُفُوفِ المجَاهِدِينَ[٥٨]، وَيُمْكِنُ تَقْدِيرُ لَفْظٍ يَعُمُّ المذْكُورَاتِ، مِثْل: وَالجَمَاعَاتِ الصَّافَّاتِ[٥٩]. وَيَرَى البِقَاعِيُّ فِي تَعْبِيرِ القُرآنِ الكَرِيمِ بِالمؤَنَّثِ دُونَ المذَكَّرِ بِاخْتِيَارِ لَفْظِ (الصَّافَّاتِ) دُونَ لَفْظِ (الصَّافِّينَ)؛ لِيَكُونَ هَذَا اللَّفْظُ شَامِلًا لِلعَاقِلِ وَغَيْرِ العَاقِلِ، مِن المَلَائِكَةِ وَالجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ وَالوَحْشِ وَغَيْرِهَا، فِي حِينِ أَنَّ جَمْعَ المذَكَّرِ السَّالِمَ سَيَكُونُ مَقْصُورًا عَلَى الذُّكُورِ العُقَلَاءِ؛ قَالَ: ((قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ أَي الجَمَاعَاتِ مِن المَلَائِكَةِ وَالمصَلِّينَ وَالمجَاهِدِينَ المكمِلِينَ أَنْفُسَهُم بِالاصْطِفَافِ فِي الطَّاعَةِ، فَهُوَ صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ مُؤَنَّثِ اللَّفْظِ، وَعَدَلَ عَن أَنْ يَقُولَ: (الصَّافِّينَ) القَاصِرَ عَلَى الذُّكُورِ العُقَلَاءِ لِيَشْمَلَ الجَمَاعَاتِ مِن المَلَائِكَةِ وَالجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ وَالوَحْشِ وَغَيْرِهَا، إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ لَا يُؤَلِّفُ بَيْنَ شَيْءٍ مِنْهَا لِيَتَّحِدَ قَصْدُهُ إِلَّا وَاحِدٌ قَهَّارٌ))[٦٠].

وَقَد وَرَدَ الجَمْعُ المؤَنَّثُ السَّالِمُ (صَافَّات)، فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِن القُرآنِ الكَرِيمِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [سورة الملك: ١٨-١٩]، وَهُوَ وَصْفٌ لِلطَّيْرِ قَبْلَهُ، وَذَهَبَ البِقَاعِيُّ إِلَى أَنَّ النَّص ٱلكَرِيمَ وَصَفَهَا بِالجَمْعِ المؤَنَّثِ دُونَ

(٥٦) ينظر: الكشف والبيان: ٨/ ١٣٨.
(٥٧) ينظر: الكشف والبيان: ٨/ ١٣٨، وغرائب التفسير: ٢/ ٩٦٩، وزاد المسير: ٣/ ٥٣٥، ومفاتيح الغيب: ٢٦/ ٣١٣، والجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٦٢، والبحر المحيط: ٩/ ٨٩، وتفسير ابن كثير: ٧/ ٥.
(٥٨) ينظر: النكت والعيون: ٥/ ٣٦.
(٥٩) ينظر: المحرر الوجيز: ٤/ ٤٦٥.
٢٦/ ٣١٣، والجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٦٢، ومدارك التنزيل: ٣/ ١١٦، والبحر المحيط: ٩/ ٨٩، والتبيان في أقسام القرآن: ٤٢٧، وتفسير ابن كثير: ٧/ ٥، واللباب في علوم الكتاب: ١٦/ ٢٧٣، وبصائر ذوي التمييز: ٣/ ٤١٨، وإرشاد العقل السليم: ٧/ ١٨٣، وروح المعاني: ١٢/ ١٥٢، ومحاسن التأويل: ٨/ ٢٠٠، والتحرير والتنوير: ٢٣/ ٨٣.

(٦٠) نظم الدرر: ١٦/ ١٨٧-١٨٩.

المذكَّر لِلدَّلَالَةِ عَلَى ضَعْفِ الطُّيُورِ فِي أَنْفُسِهَا؛ قَالَ: ((وَبيَّنَ حَالَ الطَّيْرِ فِي الفَوْقِيَّةِ بِقَوْلِهِ وَاصِفًا لَهَا بِالتَّأْنِيثِ إِشَارَةً إِلَى ضَعْفِهَا فِي أَنْفُسِهَا لَوْلَا تَقْوِيَتُهُ لَهَا ((صَافَّات)) أَي بَاسِطَات أَجْنِحَتَهَا تَمُدُّهَا غَايَةَ المدِّ بِحَيثُ تَصِيرُ مُسْتَوِيَةً لَا اعْوِجَاجَ فِيْهَا مَعَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ جَمَاعَةٌ مِنْهَا كَانَتْ صُفُوفًا أَو صَفًّا وَاحِدًا فِي غَايَةِ الانْتِظَامِ تَابِعَةً لِإِمَامٍ مِنْهَا))[٦١].

١٩. ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[سورة الزمر: ٣٨].

يَعُودُ الضَّمِيرُ الظَّاهِرُ (هُنَّ) عَلَى (مَا) فِي: (مَا تَدْعُونَ)، وَ(مَا) لَفْظُهُ مُذَكَّرٌ؛ فَكَانَ حَقُّ الضَّمِيرِ، فِي غَيْرِ القُرآنِ الكَرِيمِ، أَنْ يَكُونَ مُذَكَّرًا. وَقَد وَجَّهَ النَّحْوِيُّونَ ذَلِكَ بِالحَمْلِ عَلَى المعْنَى، لِأَنَّ (مَا) بِمَعْنَى الجَمَاعَةِ[٦٢]. وَجَعَلَ البِقَاعِيُّ إِعَادَةَ الضَّمِيرِ مُؤَنَّثًا لِلدَّلَالَةِ عَلَى سُفُولِ مَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ، قَالَ: ((بَالَغَ فِي تَنْبِيهِهِم نُصْحًا لَهُم لِيَرْجِعُوا عَن ظَاهِرِ غَيِّهِم بِمَا ذَكَرَ مِن دَنَاءَتِهَا وَسُفُولِهَا بِالتَّأْنِيثِ بَعْدَ سُفُولِهَا بِعَدَمِ العَقْلِ مَعَ دَنَاءَتِهَا وَبَعْدَ التَّهَكُّمِ بِهِم بِالتَّعْبِيرِ عَنْهَا بِأَدَاةِ الذُّكُورِ العُقَلَاءِ فَقَالَ: ((هَل هُنَّ)) أَي هَذِهِ الأَوْثَانِ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا ((كَاشِفَات)) أَي عَنِّي مَعَ اعْتِرَافِكُم بِأَنَّهُ لَا خَلْقَ لَهَا وَأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لِلهِ تَعَالَى...))[٦٣]. وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا البِقَاعِيُّ سَبَقَ أَنَّ أَشَارَ إِلَيْهَا السَّمِينُ الحَلَبِيُّ؛ قَالَ: ((قَوْلُهُ: «هُنَّ» وَإِنَّمَا أَنَّثَهُ تَحْقِيرًا لِمَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ، وَلِأَنَّهُم كَانُوا يُسَمُّونَهَا بِأَسْمَاءِ الإِنَاثِ: اللَّات وَمَنَاة وَالعُزَّى))[٦٤]. أَي أَنَّ النَّصَّ الكَرِيمَ أَعَادَ الضَّمِيرَ

(٦١) نظم الدرر: ٢٠/ ٢٥٢.

(٦٢) ينظر: مجاز القرآن: ٢/ ١٩٠، وغرائب التفسير: ٢/ ١٠١٥، والدر المصون: ٩/ ٤٣٠.

(٦٣) نظم الدرر: ١٦/ ٥١٢ -٥١٣.

(٦٤) الدر المصون: ٩/ ٤٣٠، وينظر: اللباب في علوم الكتاب: ١٦/ ٥١٨.

(هُن) مُؤَنَّثًا عَلَى الاسْم الموْصُول المذَكَّر (مَا) وَاسْتَعْمَلَ الصِّفَتَيْن: (كَاشِفَات وَمُمْسِكَات) بِحَالَة التَّأْنِيث، لِلتَّنْبِيه عَلَى كَمَال ضَعْف مَا يَعْبُدُونَ من دُون الله تَعَالى[٦٥]، وَهَذَا التَّوْجِيهُ يُصيِّرُ النَّصَّ الكَرِيمَ، مَوْضِعَ البَحْث هُنَا، مِنْ قَبِيل الْكَلَام الْمُوَجَّه الَّذِي يَحْتَمِلُ أَكْثَرَ من دَلَالَة[٦٦].

٢٠. ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الزمر: ٤٩].

يَبْدُو من ظَاهِر اللَّفْظ، في هَذِه الآيَة الكَرِيمَة، أَنَّ الضَّمِيرَ الظَّاهِرَ المتَّصِلَ في (أُوتِيتُهُ) يَعُودُ عَلَى كَلِمَة (نِعْمَةً) وَهِيَ مُؤَنَّثٌ لَفْظِيٌّ، غَيْرَ أَنَّ الضَّمِيرَ عَادَ عَلَيْهَا مُذَكَّرًا، ثُمَّ عَادَ الكَلَامُ إِلَى التَّأْنِيث في قَوْلِه: (هِيَ فِتْنَةٌ). وَقَد عَالَجَ الزَّمَخْشَرِيُّ هَذِه المسْأَلَةَ؛ قَالَ: ((فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ ذَكَّرَ الضَّمِيرَ في أُوتِيتُهُ وَهُوَ لِلنِّعْمَة؟ قُلْتُ: ذَهَابًا بِه إِلَى المعْنَى، لِأَنَّ قَوْلَهُ (نِعْمَةً مِنَّا): شَيْئًا من النِّعَم وَقِسْمًا مِنْهَا. وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ (مَا) في إِنَّمَا مَوْصُولَةً لَا كَافَّة، فَيَرجِعُ إِلَيْهَا الضَّمِيرُ، عَلَى مَعْنَى: أَنَّ الَّذِي أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْم بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ،...، فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ ذَكَّرَ الضَّمِيرَ ثُمَّ أَنَّثَهُ؟. قُلْتُ: حَمْلًا عَلَى المعْنَى أَوَّلًا، وَعَلَى اللَّفْظ آخِرًا، وَلِأَنَّ الخَبَرَ لَمَّا كَانَ مُؤَنَّثًا أَعْنِي (فِتْنَةٌ) سَاغَ تَأْنِيثُ المبْتَدَأ لِأَجْلِه لِأَنَّهُ في مَعْنَاهُ))[٦٧]. وَتَعْلِيلُ الزَّمَخْشَرِيِّ وَمَن تَابَعَهُ، هُنَا، قَائِمٌ عَلَى التَّأْوِيل لِأَنَّ مَرْجِعَهُ الأُسُسُ النَّحْوِيَّةُ وَالمنْطِقِيَّةُ المعْرُوفَةُ الَّتِي تَسْعَى لِإِيْجَاد اتِّفَاق بَيْنَ النَّصِّ وَالقَوَاعِد النَّحْوِيَّة. في حِين نَظَرَ البِقَاعِيُّ إِلَى تَلْوِين الضَّمَائِر وَتَنْوِيعِهَا في هَذِه الآيَة الكَرِيمَة من زَاوِيَة مَعْنَوِيَة أَغْنَتْ دَلَالَاتِ النَّصِّ؛ قَالَ: ((وَلَمَّا كَانَ التَّقْدِيرُ: لَيْسَ كَذَلِكَ وَلَا هِيَ نِعْمَةٌ، قَالَ دَالًّا عَلَى شُؤْم ذَلِكَ المعْطَى وَحَقَارَتِه لِأَنَّهُ من أَسْبَاب إِضْلَالِه بِالتَّأْنِيث ((بَلْ

(٦٥) ينظر: روح المعاني ١٢/ ٢٦١.

(٦٦) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٧.

(٦٧) الكشاف: ٤/ ١٣٣ -١٣٤، وينظر أيضا: المحرر الوجيز: ٤/ ٥٣٦، ومفاتيح الغيب: ٢٦/ ٤٥٩، ومدارك التنزيل: ٣/ ١٨٥ -١٨٦، والبحر المحيط: ٩/ ٢١٠، والتحرير والتنوير: ٢٤/ ٣٦.

هِيَ)) أَي العَطِيّة وَالنِّعْمَة ((فِتْنَة)) لِاخْتِبَارِه هَل يَشْكُرُ أَمْ يَكْفُرُ لِتُقَامَ عَلَيْه الحُجَّةُ. فَإِنْ أَدَّتْ إِلَى النَّار كَانَت اسْتِدْرَاجًا، وَأَنَّثَ الضَّمِيرَ تَحْقِيرًا لَهَا بِالنِّسْبَة إِلَى قُدْرَتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلِأَنَّهَا أَدَّتْ إِلَى الغُرُور بَعْدَ أَنْ ذَكَّرَ ضَمِيرَهَا أَوَّلاً تَعْظِيمًا لَهَا لِإِيْجَاب شُكْرِهَا))[٦٨].

فَقَد وَجَّهَ البِقَاعِيُّ تَذْكِيرَ الضَّمِير أَوَّلًا فِي (أُوتِيتُهُ) لِلدَّلَالَة عَلَى تَعْظِيم عَطَاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِمَنْ يَسْأَلُهُ إِحْقَاقًا لِلشُّكْرِ عَلَى العَبْد لَهُ سُبْحَانَهُ، كَمَا وَجَّهَ تَأْنِيثَ الضَّمِير فِي (هِيَ فِتْنَةٌ) بِأَنَّهُ جَاءَ لِلدَّلَالَة عَلَى تَحْقِير هَذِه النِّعْمَة فِي جَنْب قُدْرَة الله تَعَالَى.

إِنَّ هَذِه الدَّلَالَات الَّتِي اسْتَنْبَطَهَا البِقَاعِيُّ مِن قِرَاءَتِه لِلآيَة، مَحَلّ البَحْث، هِيَ دَلَالَاتٌ جَدِيدَةٌ، تَنْبَعُ مِن عَقْل لَمْ يَقْنَعْ بِتَعْلِيلَات السَّابِقِينَ لِظَاهِرَة التَّذْكِير وَالتَّأْنِيث مُنْطَلِقًا مِن أَنَّهَا ظَاهِرَةٌ لُغَوِيَّةٌ وُظِّفَتْ فِي النَّصِّ القُرآنِيِّ الكَرِيم تَوْظِيفًا إِعْجَازِيًّا وَلَيْسَ اعْتِبَاطِيًّا يُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى مَا جَاءَ فِي شِعْرِ العَرَب وكَلَامِهَا، مِمَّا يُمْكِنُ تَأْوِيلُهُ لُغَوِيًّا أَو عَقْلِيًّا.

٢١. ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[سورة فصلت: ٣٧].

يَعُودُ الضَّمِيرُ الظَّاهِرُ فِي (خَلَقَهُنَّ) عَلَى (اللَّيْل وَالنَّهَار والشَّمْس والقَمَر)، وَمِن سنَن العَرَبِيَّة تَغْلِيبُ المذَكَّر عَلَى المؤَنَّث، وَمِن ثَمَّ يُمْكِنُ القَوْلُ فِي غَيْر القُرآن الكَرِيم: وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُم، وَلَكِنَّ النَّصَّ الكَرِيمَ عَدَلَ عَن المذَكَّر إِلَى المؤَنَّث لِلإِشَارَة إِلَى تَدَنِّيهَا وَضَعْفِهَا، ذَمًّا لِمَن يَعْبُدُهَا عَلَى الرَّغْم مِن سُفُولِ مَنْزِلَتِهَا؛ قَالَ البِقَاعِيُّ: ((وَنَبَّهَ عَلَى مَزِيد عَظَمَتِه بِالإِظْهَار مَوْضِعَ الإِضْمَار فَقَالَ: ((لله)) أَي الَّذِي لَهُ كُلُّ كَمَال مِن غَيْر شَائِبَة نَقْص مِن أُفُول أَو تَجَدُّد حُلُول ((الَّذِي خَلَقَهُنَّ)) أَي الأَرْبَعَة لِأَجْلِكُم فَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الإِلَهِيَّةَ، وَأَنَّثَ لِأَنَّ مَا لَا يَعْقِلُ حُكْمُهُ حُكْمُ المؤَنَّث فِي الضَّمِير وَهِيَ أَيْضًا آيَاتٌ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى تَنَاهِي سُفُولِهَا عَمَّا أَهَّلُوهَا لَهُ وَذَمٍّ

(٦٨) نظم الدرر: ١٦/ ٥٢٩ – ٥٣٠.

عَابِدِيهَا بِالإِفْرَاطِ فِي الغَبَاوَةِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ عَدَّ القَمَرَ أَقْمَارًا لِأَنَّهُ يَكُونُ تَارَةً هِلَالاً وَأُخْرَى بَدْراً وَأُخْرَى مَحْواً، فَلِذَلِكَ جَمَعَ،...، وَلِذَلِكَ عَبَّرَ بِضَمِيرِ المؤَنَّثِ الَّذِي يَكُونُ لِجَمْعِ الكَثْرَةِ مِمَّا لَا يَعْقِلُ))[٦٩]. وَالبِقَاعِيُّ هُنَا يَرْبِطُ بَيْنَ سُفُولِ المَنْزِلَةِ وَانْحِطَاطِهَا وَالتَّأْنِيثِ، لِأَنَّهُ فِي مَرْتَبَةٍ تَالِيَةٍ لِلمُذَكَّرِ.

٢٢. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[سورة الحُجُرَات: ١٣ - ١٤].

يَجُوزُ تَذْكِيرُ الفِعْلِ (قَالَت) وَتَأْنِيثُهُ، لِأَنَّ فَاعِلَهُ، وَهُوَ (الأَعْرَاب)، اسْمُ جِنْسٍ جَمْعِيٍّ؛ فَالتَّذْكِيرُ عَلَى اللَّفْظِ وَالتَّأْنِيثُ عَلَى مَعْنَى (جَمَاعَةِ الأَعْرَابِ)[٧٠]، قَالَ البَغَوِيُّ: ((إِنَّ الذُّكُورَ إِذَا تَقَدَّمَ فِعْلُهُمْ وَهُمْ جَمَاعَةٌ كَانَ التَّأْنِيثُ فِيهِم أَحْسَنَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ﴾))[٧١].

وَقَد تَوَقَّفَ السُّهَيْلِيُّ (ت ٥٨٢هـ) عِنْدَ تَأْنِيثِ الفِعْلِ (قَالَت) فِي هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ وَتَذْكِيرِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [سورة يوسف: ٣٠]، وَوَازَنَ بَيْنَ الاسْتِعْمَالَيْنِ القُرْآنِيَّيْنِ، وَوَصَفَ تَعْلِيلَ النُّحَاةِ لِلتَّذْكِيرِ بِالحَمْلِ عَلَى اللَّفْظِ وَلِلتَّأْنِيثِ بِالحَمْلِ عَلَى مَعْنَى الجَمَاعَةِ بِأَنَّهُ وَاهِنٌ؛ قَالَ: ((وَزَعَمُوا أَنَّ التَّاءَ فِي ((قَالَتِ الْأَعْرَابُ)) لِتَأْنِيثِ الجَمَاعَةِ، وَتَأْنِيثُ الجَمَاعَةِ غَيْرُ حَقِيقِيٍّ. وَقَد كَانَ عَلَى هَذَا لُحُوقُ التَّاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾ أَوْلَى؛ إِذْ كَانَ تَأْنِيثُ النِّسْوَةِ حَقِيقَةً. وَاتَّفَقُوا أَنَّ الفِعْلَ إِذَا تَأَخَّرَ عَن فَاعِلِهِ المؤَنَّثِ، فَلَا بُدَّ مِن

(٦٩) نظم الدرر: ١٧/ ١٩٣.

(٧٠) ينظر: الأصول في النحو: ٢/ ١٠٢، والكشف والبيان: ٣/ ٥٩، والمحرر الوجيز: ١/ ٤٢٨، وأوضح المسالك: ٢/ ١٠٠، وشرح شذور الذهب: ٢٢٥، وشرح التصريح: ١/ ٤١٠، وهمع الهوامع: ٣/ ٣٣٤.

(٧١) تفسير البغوي: ١/ ٤٣٥.

إثْبَاتِ تَاءِ التَّأْنِيثِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَأْنِيثُهُ حَقِيقَةً، وَلَمْ يَذْكُرُوا فَرْقًا بَيْنَ تَقَدُّمِ الفِعْلِ وَتَأَخُّرِهِ. وَفِي هَذَا كُلُّهُ وَهْنٌ لِأُصُولِهِم، وَدَلِيلٌ عَلَى قِلَّةِ تَحْصِيلِهِم))[٧٢]. وَوَاضِحٌ مِن كَلَامِ السُّهَيْلِيِّ أَنَّهُ يَرْفُضُ مَا يُوْرِدُهُ اللُّغَوِيُّونَ مِن تَعْلِيلَاتٍ لِمَجِيءِ الفِعْلِ مُؤَنَّثًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ﴾، وَمُذَكَّرًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾، مُسْتَنِدًا إِلَى أَنَّ المَنْطِقَ يَقْتَضِي خِلَافَ ذَلِكَ، لِأَنَّ مُفْرَدَ الأَوَّلِ مُذَكَّرٌ حَقِيقِيٌّ، وَهُوَ: (أَعْرَابِيّ)، وَمُفْرَدُ الثَّانِي مُؤَنَّثٌ حَقِيقِيٌّ، وَهُوَ: (امْرَأَة)[٧٣]. وَلَعَلَّ فِي كَلَامِ البِقَاعِيِّ مَا يَكْشِفُ عَن سِرِّ هَذَيْنِ التَّعْبِيرَيْنِ القُرْآنِيين؛ إِذْ فَسَّرَ إِلْحَاقَ التَّاءِ لِلفِعْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ﴾، بِأَنَّهُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى ضَعْفِ عَزِيمَتِهِم عَنِ الإِيْمَانِ، لِيَكُونَ هَذَا تَمْهِيدًا لِتَكْذِيبِ ادِّعَائِهِم أَنَّهُم آمَنُوا حَقِيقَةً، كَمَا أَخْبَرَ القُرْآنُ الكَرِيمُ نَفْسُهُ؛ قَالَ: ((قَالَ: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ﴾ أَي أَهْلُ البَادِيَةِ مِن بَنِي أَسَدٍ وَغَيرِهِم الَّذِينَ هُمْ مَعْدِنُ الغِلْظَةِ وَالجَفَاءِ الَّذِينَ تَقَدَّمَ تَأْدِيبُهُم فِي سُورَةِ مُحَمَّدٍ، وَأَلْحَقَ التَّاءَ فِي فِعْلِهِم إِشَارَةً إِلَى ضَعْفِهِم فِي العَزَائِمِ))[٧٤].

وَانْطِلَاقًا مِن هَذِهِ الرُّؤْيَةِ يُمْكِنُ القَوْلُ إِنَّ مَجِيءَ الفِعْلِ (قَالَ) مُجَرَّدًا مِن التَّاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾ يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ القَوْلِ وَوُضُوحِهِ وَإِعْلَانِهِ وَتَكْرَارِهِ حَتَّى إِنَّهُ بَلَغَ زَوْجَةَ العَزِيزِ، فَهُوَ لَيْسَ قَوْلًا ضَعِيفًا مَسْتُورًا بِحِجَابِ النَّمِيمَةِ قِيلَ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَم.

٢٣. ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [سورة القمر: ١].

يُفَسِّرُ المُفَسِّرُونَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾، بِـ: دَنَت القِيَامَةُ وَقَرُبَت[٧٥]. وَانْطَلَقَ البِقَاعِيُّ مِن النَّظَرِ إِلَى أَنَّ تَأْنِيثَ السَّاعَةِ لَفْظِيٌّ وَلَيْسَ حَقِيقِيًّا، يَجُوزُ مَعَهُ تَأْنِيثُ الفِعْلِ وَتَذْكِيرُهُ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ

(٧٢) نتائج الفكر في النحو: ١٢٨.

(٧٣) استعمال المفرد هنا تجوز.

(٧٤) نظم الدرر: ١٨/ ٣٨٥.

(٧٥) ينظر: الكشف والبيان: ٩/ ١٦٠، والنكت والعيون: ٥/ ٤٠٨، وغرائب التفسير: ٢/ ١١٦١، وتفسير البغوي: ٤/ ٣٢٠، والكشاف: ٤/ ٤٣٠، والجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ١٢٥، وأنوار التنزيل: ٥/ ١٦٤.

اخْتِيَارَ النَّصِّ الكَرِيمِ التَّعْبِيرَ بِالمؤَنَّثِ دَلَالَةً عَلَى عَظِيمِ اقْتِدَارِ اللهِ تَعَالَى عَلَى القِيَامَةِ مِمَّا يَعْنِي مِن وَجْهٍ مَا شِدَّةَ قُرْبِهَا؛ قَالَ: ((قَالَ دَالًّا عَلَى عَظِيمِ اقْتِدَارِهِ عَلَيْهَا بِتَأْنِيثِ فِعْلِهَا: ((اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ)) اشْتَدَّت قُرْبًا السَّاعَة: اللَّحْظَة الَّتِي لَا سَاعَةَ فِي الحَقِيقَةِ غَيْرَهَا الَّتِي تَقُومُ فِيهَا القِيَامَةُ لِأَنَّهُ قَلَّ مَا بَقِيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا مَضَى مِن زَمَنِ آدَمَ(عليه السلام))[٧٦]. وَقَد تَبْدُو هَذِهِ الدَّلَالَةُ الَّتِي يَجْتَرِحُهَا نَظَرُ البِقَاعِيِّ فِي النَّصِّ الكَرِيمِ مُتَكَلَّفَةً نَوْعًا مَا، لِأَنَّ الأَفْصَحَ فِي العَرَبِيَّةِ مَعَ المؤَنَّثِ- وَإِنْ كَانَ لَفْظِيًّا -تَأْنِيثُ الفِعْلِ، وَإِنْ جَازَ التَّذْكِيرُ.

٢٤. ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [سورة القمر: ٤٩ -٥٠].

يُؤَوِّلُ اللُّغَوِيُّونَ مَجِيءَ الخَبَرِ مُؤَنَّثًا مَعَ أَنَّ المُبْتَدَأَ مُذَكَّرٌ، وَكَانَ حَقُّهُ لُغَوِيًّا: وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدًا، بِتَقْدِيرِ نَعْتٍ مَحْذُوفٍ، نَحْوِ: مَرَّةً وَاحِدَةً[٧٧]، أَو قَوْلَةً وَاحِدَةً[٧٨]، أَو أَمْرَةً وَاحِدَةً[٧٩]، أَو كَلِمَةً وَاحِدَةً[٨٠]، أَو فعْلَةً وَاحِدَةً[٨١]. وَيُبَيِّنُ الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور أَنَّ الغَايَةَ مِن هَذَا التَّعْبِيرِ هِيَ ((الْكِنَايَة عَنْ أَسْرَعِ مَا يُمكِنُ مِنَ السُّرْعَة))[٨٢]. وَعَلَى الرَّغْمِ مِن أَنَّ البِقَاعِيَّ فَسَّرَ التَّعْبِيرَ بِفعْلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهُوَ تَقْدِيرٌ لَا يَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَمَّا ذَكَرَه السَّابِقُونَ، إِلَّا أَنَّهُ رَأَى فِي تَذْكِيرِ

(٧٦) نظم الدرر: ١٩/ ٨٧.

(٧٧) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٣/ ١١٠، وتفسير البغوي: ٤/ ٣٣٠، وزاد المسير: ٤/ ٢٠٤، والجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ١٤٩.

(٧٨) ينظر: جامع البيان: ٢٢/ ٦٠٧.

(٧٩) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٤/ ٢٠٢.

(٨٠) ينظر: الكشف والبيان: ٩/ ١٧١، وتفسير البغوي: ٤/ ٣٣٠، والكشاف: ٤/ ٤٤١، ومفاتيح الغيب: ٢٩/ ٣٢٧، وتفسير البيضاوي: ٥/ ١٦٨، ومدارك التنزيل: ٣/ ٤٠٧، والبحر المحيط: ١٠/ ٤٩، واللباب في علوم الكتاب: ١٨/ ٢٨٤، وإرشاد العقل السليم: ٨/ ١٧٥، وروح المعاني: ١٤/ ٩٤، و محاسن التأويل: ٩/ ٩٦، و التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢٢٠.

(٨١) ينظر: تفسير البيضاوي: ٥/ ١٦٨، وإرشاد العقل السليم: ٨/ ١٧٥، وروح المعاني: ١٤/ ٩٤.

(٨٢) التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢٢٠.

(أَمْرنَا) تَعْظِيمًا لِلتَّقْدِيرِ الإِلَهِيِّ المتَمَثِّلِ بالأَمْرِ، وَرَأَى فِي تَأْنِيثِ (وَاحِدة) تَحْقِيرًا لِلمَقْدُورَاتِ فِي جَنْبِ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى؛ قَالَ: ((قَالَ: ((وَمَا أَمْرُنَا)) أَي كُلّ شَيءٍ أَرَدْنَاهُ وَإِنْ عَظُمَ أَثَرُهُ، وَعَظَّمَ القدْرَ وَحَقَّرَ المقْدُورَاتِ بِالتَّأْنِيثِ فَقَالَ: (إِلَّا وَاحِدة) أَي فعْلَة يَسِيرَة لَا مُعَالَجَةَ فِيهَا))[٨٣]. وَيُعَدُّ تَوْجِيهُ البِقَاعِيِّ هَذَا اسْتِنْبَاطًا دَلَالِيًّا جَدِيدًا لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهِ، فِيمَا اطَّلَعْتُ عَلَيْهِ.

٢٥. ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [سورة الممتحنة: ٤].

يَجُوزُ فِي الفِعْلِ (كَانَ) فِي مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ التَّذْكِيرُ وَالتَّأْنِيثُ، فَيُقَالُ: كَانَ لَكُم أُسْوَةٌ وَكَانَت لَكُم أُسْوَة، لِوُجُودِ فَاصِلٍ بَيْنَ الفِعْلِ وَمَرْفُوعِهِ، وَقَد وَرَدَ هَذَا الفِعْلُ مُذَكَّرًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٢١]. وَقَد نَظَرَ البِقَاعِيُّ فِي هَذَا التَّعْبِيرِ القُرْآنِيِّ اللَّطِيفِ وَلَم يَكْتَفِ بِالتَّعْلِيلِ اللُّغَوِيِّ المأْلُوفِ مِن أَنَّ (أُسْوَة) مُؤَنَّثٌ لَفْظِيٌّ يَجُوزُ مَعَهُ تَأْنِيثُ الفِعْلِ وَتَذْكِيرُهُ، وَبَحَث عَن دَلَالَةٍ لِتَأْنِيثِ الفِعْلِ فِي هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ، فَوَجَدَ فِي هَذَا التَّأْنِيثِ إِشَارَةً إِلَى الرِّضَا بِهَذِهِ الأُسْوَةِ وَلَو عَلَى أَدْنَى وَجْهٍ مِن الوُجُوهِ؛ قَالَ: ((وَكَانَ تَأْنِيثُ الفِعْلِ إِشَارَةً إِلَى الرِّضَا بِهَا وَلَو كَانَتْ عَلَى أَدْنَى الوُجُوهِ))[٨٤]. وَهُنَا نَجِدُ أَنَّهُ وَظَّفَ دَلَالَةَ التَّأْنِيثِ تَوْظِيفًا إِيْجَابِيًّا لِلإِشَارَةِ إِلَى اتِّخَاذِ النَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام أُسْوَة وَالرِّضَا بِهِ قُدْوَة وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى أَدْنَى الوُجُوهِ وَأَقَلِّهَا. وَإِذَا انْطَلَقْنَا مِن هَذِهِ الرُّؤْيَةِ الَّتِي رَسَمَهَا لَنَا البِقَاعِيُّ وَبَحَثْنَا عَن سَبَبِ تَذْكِيرِ الفِعْلِ فِي آيَةِ الأَحْزَابِ السَّابِقَةِ، فَيُمْكِنُ القَوْلُ إِنَّ التَّذْكِيرَ هُنَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ

(٨٣) نظم الدرر: ١٩/ ١٣٣.

(٨٤) نظم الدرر: ١٩/ ٤٩٦.

الرَّسُولَ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ القُدْوَةُ الجَامِعَةُ لِكُلِّ صِفَاتِ الخَلْقِ السَّامِي وَالأُسْوَة المتَكَامِلَة، وَمِن ثَمَّ دَلَّ عَلَى عِظَمِ مَكَانَتِهَا وَقُوَّةِ أَثَرِهَا بِأَنْ جَاءَ مَعَهَا بِالفِعْلِ مُذَكَّرًا غَيْرَ مُؤَنَّث، لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهَا الشَّخْصِيَّةُ المتَكَامِلَةُ عَلَى كُلِّ الوُجُوه.

٢٦. ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سورة الجمعة: ١٠ - ١١].

أُعِيدَ الضَّمِيرُ الظَّاهِرُ فِي (إِلَيهَا) مُؤَنَّثًا عَلَى (تِجَارَة) عَلَى الرَّغْمِ مِن أَنَّ الكَلَامَ عَن التِّجَارَةِ وَاللَّهْو، وَقَد وَجَّهَ النُّحَاةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ ((جَعَلَ الهَاءَ لِلتِّجَارَةِ دُونَ اللَّهْو))[٨٥]، أَو أَنَّ تَقْدِيرَ الكَلَامِ: إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً انْفَضّوا إِلَيْهَا أَو لَهْوًا[٨٦]، أَو بِالقَوْلِ إِنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَ شَيْئَانِ فَيُجْعَلُ الفِعْلُ أَو الضَّمِيرُ لِأَحَدِهُمَا[٨٧]، ((فَحُذِفَ خَبَرُ أَحَدِهِمَا لِأَنَّ الخَبَرَ الثَّانِي يَدُلُّ عَلَى الخَبَرِ المحْذُوفِ وَالمعْنَى إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً انْفَضُّوا إِلَيْهَا أَو لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهِ))[٨٨]، وَقِيلَ إِنَّهُ ((رَدَّ الكِنَايَةَ إِلَى التِّجَارَةِ لِأَنَّهَا أَعَمُّ وَأَفْضَلُ))[٨٩]، أَو بِعِبَارَةٍ أُخْرَى ((لِأَنَّهَا كَانَتْ أَهَمَّ إِلَيْهِم، وَهُمْ بِهَا أَسَرُّ مِن الطَّبْلِ؛ لِأَنَّ الطَّبْلَ إِنَّمَا دَلَّ عَلَى التِّجَارَةِ، وَالمعْنَى كُلُّهُ لَهُ))[٩٠].

وَيَرى البِقَاعِيُّ أَنَّ النَّصَّ الكَرِيمَ أَنَّثَ الضَّمِيرِ لِلاهْتِمَامِ بِالتِّجَارَةِ لِأَنَّ اللَّهْوَ

(٨٥) معاني القرآن للفراء: ٣/ ١٥٧، وينظر: معاني القرآن للأخفش: ١/ ٨٨، وإعراب القرآن للنحاس: ٤/ ٢٨٣، والكشف والبيان: ٣/ ٣٨٣.

(٨٦) ينظر: مجاز القرآن: ٢/ ٢٥٨.

(٨٧) ينظر: تأويل مشكل القرآن: ١٧٦.

(٨٨) معاني القرآن وإعرابه: ٥/ ١٧٢، وينظر: الكشاف: ٤/ ٥٣٧.

(٨٩) الكشف والبيان: ٥/ ٣٩، وتفسير الراغب الأصفهاني: ١/ ١٧٧، وتفسير البغوي: ٢/ ٣٤٤.

(٩٠) النكت في القرآن الكريم: ٤٩٥، وينظر: التبيان في إعراب القرآن: ٢/ ١٢٢٣، والجامع لأحكام القرآن: ١/ ٣٢٥، وأنوار التنزيل: ٥/ ٢١٢، ومدارك التنزيل: ٣/ ٤٨٢، والتحرير والتنوير: ٢٨/ ٢٢٨، ويقارن بـ: الدر المصون: ١/ ٣٣٠، واللباب في علوم الكتاب ٢/ ٣٣.

مُسَبَّبٌ عَنْهَا؛ قَالَ: ((وَكَانَ قَصَدَ بَعْضُ المُنْفَضِّينَ العِيرَ، وَبَعْضُهُم مَا قَارَنَهَا مِن اللَّهْوِ، وَلَكِنَّ قَاصِدَ التِّجَارَةِ هُوَ الأَكْثَرُ، أَنَّثَ الضَّمِيرَ فَقَالَ مُعْلِمًا بِالاهْتِمَامِ بِهَا لِأَنَّ اللَّهْوَ مُسَبَّبٌ عَنْهَا: «إِلَيْهَا» وَلِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ إِذَا ذَمَّ قَاصِدَهَا مَعَ مَا فِيهَا مِن النَّفْعِ، وَالإِنْسَانُ لَا بُدَّ لَهُ مِن إِصْلَاحِ مَعَاشِهِ لِقِيَامِ حَالِهِ وَلَا سِيَّمَا وَالحَاجَةُ إِذْ ذَاكَ شَدِيدَةٌ، كَانَ الذَّمُّ لِقَصْدِ اللَّهْوِ مِن بَابِ الأَوْلَى))[٩١].

٢٧. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾[سورة الملك: ٢٥-٢٧].

الزُّلْفَةُ: القُرْبُ، وَيَجْعَلُ المفَسِّرُونَ المعْنَى: فَلَمَّا رَأَوْهُ قَرِيبًا، أَو ذَا زُلْفَةٍ، أَو مَكَانًا ذَا زُلْفَةٍ، أَو رَأَوْهُ عَيَانًا[٩٢]، وَالزُّلْفَةُ: اسْمُ مَصْدَرٍ. وَفِي هَذِهِ الجُمْلَةِ إِخْبَارٌ بِالْمَصْدَرِ لِلْمُبَالَغَةِ، أَيْ رَأَوْهُ شَدِيدَ الْقُرْبِ مِنْهُمْ، أَيْ أَخَذَ يَنَالُهُمْ[٩٣].

وَوَجَدَ البِقَاعِيُّ فِي التَّعْبِيرِ بِالمصْدَرِ هُنَا مُبَالَغَةً، وَأَنَّ اسْتِعْمَالَ هَذِهِ التَّاءِ فِي (زُلْفَة) لِتَوكِيدِ المبَالَغَةِ، فَهِيَ لَيْسَتْ لِلتَّأْنِيثِ؛ قَالَ: ((«فَلَمَّا رَأَوْهُ» أَي الوَعْد بِانْكِشَافِ المَوْعُودِ بِهِ عِنْدَ كَوْنِهِ، وَحَقَّقَ مَعْنَى المَاضِي وَالفَاءِ بِقَوْلِهِ: ((زُلْفَة)) أَي ذَا قُرْبٍ عَظِيمٍ مِنْهُم، وَذَلِكَ بِالتَّعْبِيرِ عَن اسْمِ الفَاعِلِ بِالمصْدَرِ إِبْلَاغًا فِي المعْنَى المرَادِ وَأَكَّدَ المبَالَغَةَ بِالتَّاءِ لِأَنَّهَا تَرِد لِلمُبَالَغَةِ إِذَا لَمْ يُرَد مِنْهَا التَّأْنِيثُ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ دَلَّتْ قَرِينَةٌ أُخْرَى عَلَى ذَلِكَ))[٩٤].

٢٨. ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾[سورة المعارج: ٤٣ -٤٤].

يَجِدُ البِقَاعِيُّ أَنَّ تَاءَ التَّأْنِيثِ لَحِقَتْ

(٩١) نظم الدرر: ٢٠/ ٦٩.

(٩٢) ينظر: الكشاف: ٤/ ٥٨٢، ومفاتيح الغيب: ٣٠/ ٥٩٦، والجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٢٢٠، وأنوار التنزيل: ٥/ ٢٣٢ومدارك التنزيل: ٣/ ٥١٦، والبحر المحيط: ١٠/ ٢٢٩، واللباب في علوم الكتاب ١٩/ ٢٥٧، وبصائر ذوي التمييز: ٣/ ١٣٦، ومعترك الأقران: ٣/ ١١٤.

(٩٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩/ ٥٠.

(٩٤) نظم الدرر: ٢٠/ ٢٦٥.

كَلِمَةَ (خَاشِعَة) في سِيَاقِ هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ لِلمُبَالَغَةِ في تَصْوِيرِ حَالَةِ الانْكِسَارِ وَالذُّلِّ وَالصَّغَارِ لِلَّذِينَ يَصِفُهُم النَّصُّ الكَرِيمُ؛ قَالَ: ((وَلَمَّا كَانَ إِيْفَاضُهُم إِلَى الأَنْصَابِ عَلَى حَالِ السُّرُورِ، أَخْبَرَ أَنَّ هَذَا عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، وَأَنَّ ذِكْرَ النُّصُبِ وَتَصْوِيرِ حَالَةِ الإِتْيَانِ إِلَيْهِ مَا كَانَ إِلَّا تَهَكُّمًا بِهِم فَقَالَ: «خَاشِعَة» أَي مُنْكَسِرَة مُتَوَاضِعَة لِمَا حَلَّ بِهَا مِن الذُّلِّ وَالصَّغَارِ، وَأَلْحَقَهَا عَلَامَةَ التَّأْنِيثِ زِيَادَةً فِي هَذَا المَعْنَى وَمُبَالَغَةً فِيهِ بِقَوْلِهِ: «أَبْصَارُهُم»))[٩٥].

٢٩. ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [سورة الأعلى: ٩ -١٠].

عَدَلَ النَّصُّ الكَرِيمُ عَن اسْتِعْمَالِ مَصْدَرِ الفِعْلِ (ذَكَّر) الَّذِي يَتَبَادَرُ إِلَى الذِّهْنِ، لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ، وَهُوَ (التَّذْكِير)، أَو مَصْدَرًا آخَرَ نَحْو: (الذِّكْر)، أَو (التَّذَكُّر)، وَفَضَّلَ اسْتِعْمَالَ المَصْدَرِ (ذِكْرَى)[٩٦] المؤَنَّث لَفْظِيًّا بِالأَلِفِ، وَمِن ثَمَّ جَاءَ الفِعْلُ مَعَهُ مُؤَنَّثًا أَيْضًا، فَقَالَ: (نَفَعَت)، وَيَرَى البِقَاعِيُّ فِي هَذَا الاسْتِعْمَالِ وَمَجِيْءِ الفِعْلِ مُؤَنَّثًا دَلَالَةً عَلَى الحَثِّ عَلَى التَّذْكِيرِ وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا أَو ضَعِيفًا؛ قَالَ: ((«فَذَكِّر» أَي بِهَذَا الذِّكْرِ الحَكِيمِ،...، وَلَو كَانَ عَلَى وَجْهٍ ضَعِيفٍ -بِمَا أَشَارَ إِلَيْهِ تَأْنِيثُ الفِعْلِ بَعْدَ مَا أَفَادَتْهُ أَدَاةُ الشَّكِّ))[٩٧].

٣٠. ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [سورة الفلق ١ -٥].

النَّفَّاثَاتُ: هُنَّ السَّاحِرَاتُ اللَّوَاتِي يَنْفُثْنَ سِحْرَهُن فِي عُقَدٍ يَعْقِدْنَهَا بِالخُيُوطِ وَنَحْوِهَا[٩٨]، وَالنَّفْثُ شِبْهُ النَّفْخِ وَدُونَ

(٩٥) نظم الدرر: ٢٠/ ٤٢١.

(٩٦) الذكرى: مصدر أو اسم مصدر من الفعل (ذكّر)، بِمَعْنى الذّكر أو التذكّر، وَليس في العربية مصدر على وزن (فعلى) غير (ذكرى). ينظر: المحكم والمحيط الأعظم (حسن): ٣/ ١٩٨، ولسان العرب: (حسن): ١٣/ ١١٥، والكليات: ٤٥٧، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٢٨٤، والجدول في إعراب القرآن: ٧/ ١٨٢.

(٩٧) نظم الدرر: ٢١/ ٣٩٨.

(٩٨) ينظر: معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٠١، وتأويل مشكل القرآن: ٧٧، وجامع البيان: ٢٤/ ٧٠٤، ومعاني القرآن

التَّفْلِ وَلَكِنَّهُ بِلَا رِيقٍ[٩٩]، وَقِيلَ: النَّفَّاثَاتُ: هُنَّ النِّسَاءُ، أَوِ النُّفُوسُ، أَوِ الجَمَاعَاتُ السَّوَاحِرُ[١٠٠]. وَيَذْكُرُ بَعْضُ المفَسِّرِينَ أَنَّ المرَادَ بِالنَّفَّاثَاتِ بِنَاتُ لَبِيد بنِ الأَعْصَمِ اليَهُودِيِّ اللَّوَاتِي سَحَرْنَ النَّبِيَّ ﷺ، وَعَقَدْنَ لَهُ إِحْدَى عَشْرَةَ عُقْدَةً، فَأَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً بِعَدَدِ العُقَدِ، وَهُنَّ المعَوِّذَتَانِ، شِفَاءً لِلنَّبِيِّ ﷺ[١٠١]. وَذَهَبَ البِقَاعِيُّ إِلَى أَنَّ النَّصَّ الشَّرِيفَ جَاءَ بِصِيغَةِ (النَّفَّاثَات) بِالتَّعْرِيفِ وَالجَمْعِ وَالتَّأْنِيثِ لِيَدْخُلَ فِيهِ مَا دُونَهُ سَواء كَانَ المرَادُ نُفُوسَ الرِّجَالِ أَو نُفُوسَ النِّسَاءِ؛ قَالَ: ((عَرَّفَ وَبَالَغَ وَجَمَعَ وَأَنَّثَ لِيَدْخُلَ فِيهِ مَا دُونَهُ مِن بَابِ الأَوْلَى فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ أَي النُّفُوسِ السَّاحِرَةُ سَواء كَانَتْ نُفُوسَ الرِّجَالِ أَو نُفُوسَ النِّسَاءِ أَي الَّتِي تُبَالِغُ فِي النَّفْثِ))[١٠٢]. فِي حِينِ وَجَّهَ الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور مَجِيءَ النَّفَّاثَاتِ بِصِيغَةِ الجَمْعِ المؤَنَّثِ بِأَنَّ النِّسَاءَ أَكْثَرُ تَعَاطِيًا لِلسِّحْرِ مِن الرِّجَالِ؛ قَالَ: ((المُرَادُ بِالنَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ: النِّسَاءُ السَّاحِرَاتُ، وَإِنَّمَا جِيءَ بِصِفَةِ الْمُؤَنَّثِ لِأَنَّ الْغَالِبَ عِنْدَ الْعَرَبِ أَنْ يَتَعَاطَى السِّحْرَ النِّسَاءُ لِأَنَّ نِسَاءَهُمْ لَا شُغْلَ لَهُنَّ بَعْدَ تَهْيِئَةِ لَوَازِمِ الطَّعَامِ وَالْمَاءِ وَالنَّظَافَةِ، فَلِذَلِكَ يَكْثُرُ انْكِبَابُهُنَّ عَلَى مِثْلِ هَاتِهِ السَّفَاسِفِ مِنَ السِّحْرِ وَالتَّكَهُّنِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَالْأَوْهَامُ الْبَاطِلَةُ تَتَفَشَّى بَيْنَهُنَّ))[١٠٣].

وإعرابه: ٥/ ٣٧٩، والكشف والبيان: ١٠/ ٣٤٠، و النكت والعيون: ٦/ ٣٧٥، وتفسير القشيري: ٣/ ٧٨٥، والمفردات في غريب القرآن: ٨١٦، وتفسير البغوي: ٥/ ٣٣٥، و الكشاف ٤/ ٨٢١، والمحرر الوجيز: ٥/ ٥٣٩، والجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٥٧، وأنوار التنزيل: ٥/ ٣٤٨، و مدارك التنزيل: ٣/ ٦٩٨، و اللباب في علوم الكتاب: ٢٠/ ٥٧٣، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٦٢٨.

(٩٩) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٥/ ٣٧٩، والكشف والبيان: ١٠/ ٣٤٠، والمحرر الوجيز: ٥/ ٥٣٩، ومفاتيح الغيب: ٣٢/ ٣٧٤، وأنوار التنزيل: ٥/ ٣٤٨.

(١٠٠) ينظر: الكشاف ٤/ ٨٢١.

(١٠١) ينظر: المحرر الوجيز: ٥/ ٥٣٩، وأنوار التنزيل: ٥/ ٣٤٨.

(١٠٢) نظم الدرر: ٢٢/ ٤١١ -٤١٢.

(١٠٣) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٦٢٨. وينظر مثل هذا التوجيه في: مفاتيح الغيب: ٣٢/ ٣٧٤.

الخَاتِمَةُ وَالنَّتَائِجُ:

تَوَصَّلَ هَذَا البَحْثُ، بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى، إِلَى ثَلَاثِ نَتَائِجَ مُهِمَّةٍ، يَتَمَثَّلُ أَوَّلُهَا فِي أَنَّ البِقَاعِيَّ نَظَرَ إِلَى التَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيثِ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ نَظْرَةً جَدِيدَةً غَيْرَ مَسْبُوقَةٍ، حَتَّى لَيُمْكِنُ القَوْلُ إِنَّهَا تُشَكِّلُ ظَاهِرَةً جَدِيدَةً فِي الفِكْرِ اللُّغَوِيِّ عَامَّةً لَا فِي فِكْرِ البِقَاعِيِّ فَقَطْ، وَقَدْ صَبَّتْ دِرَاسَةُ البِقَاعِيِّ لِلتَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيثِ فِي مَيَدَانِ إِعْجَازِ النَّصِّ القُرْآنِيِّ الكَرِيمِ، لِأَنَّهُ كَشَفَ عَنْ نُكَتٍ بَلَاغِيَّةٍ دَقِيقَةٍ امْتَازَ بِهَا الاسْتِعْمَالُ القُرْآنِيُّ لِلْمُذَكَّرِ وَالمُؤَنَّثِ. وَهَذِهِ النَّظْرَةُ الجَدِيدَةُ وَالمُتَفَرِّدَةُ لِلتَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيثِ، فِي العَرَبِيَّةِ وَالقُرْآنِ الكَرِيمِ تَسْتَحِقُّ مِنَ البَاحِثِينَ الدَّرْسَ وَالتَّأَمُّلَ وَالإِفَادَةَ، وَلَاسِيَّمَا فِيمَا تُوَفِّرُهُ حَالَاتُ جَوَازِ التَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيثِ مِنْ سَعَةٍ وَمُرُونَةٍ فِي الاخْتِيَارِ وَالتَّعْبِيرِ فِي العَرَبِيَّةِ. وَمِنْ هَذِهِ النَّتِيجَةِ تَنْبَثِقُ النَّتِيجَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي تَتَجَلَّى فِي الدَّلَالَاتِ الأَسَاسِيَّةِ الَّتِي كَشَفَ عَنْهَا البِقَاعِيُّ لِلتَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيثِ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، إِذْ تَدُورُ دَلَالَاتُ التَّذْكِيرِ الأَسَاسِيَّةِ فِي الخِطَابِ القُرْآنِيِّ، عِنْدَ البِقَاعِيِّ، حَوْلَ: القُوَّةِ وَالعُلُوِّ وَالرِّفْعَةِ وَالصَّلَابَةِ، فِي حِينِ تَدُورُ دَلَالَاتُ التَّأْنِيثِ الأَسَاسِيَّةِ، عِنْدَهُ، حَوْلَ: الضَّعْفِ وَالتَّحْقِيرِ وَالتَّقْلِيلِ، وَهَذِهِ الدَّلَالَاتُ الرَّئِيسَةُ تَتَفَرَّعُ مِنْهَا دَلَالَاتٌ سِيَاقِيَّةٌ مُخْتَلِفَةٌ، عَرَضَ البَحْثُ لِأَهَمِّ صُوَرِهَا، عِنْدَ البِقَاعِيِّ؛ وَمِنْهَا: دَلَالَةُ المُذَكَّرِ فِي سِيَاقِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ عَلَى: رِفْعَةِ القَدْرِ، وَتَعْظِيمِ الحُجَجِ، وَالارْتِفَاعِ عَنِ التُّهَمَةِ وَالشُّبْهَةِ، وَالبُعْدِ عَنِ النَّقْصِ، وَتَفْخِيمِ الشَّيْءِ وَتَكْثِيرِهِ، وَتَهْوِيلِ العَذَابِ؛ وَمِنْهَا دَلَالَةُ المُؤَنَّثِ فِي سِيَاقِ النَّصِّ عَلَى: التَّحْقِيرِ، وَنُزُولِ القَدْرِ، وَسُفُولِ المَرْتَبَةِ، وَضَعْفِ القَوْلِ أَوِ العَمَلِ، وَضَعْفِ العَقْلِ، وَتَقْلِيلِ المُدَّةِ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذِهِ الدَّلَالَاتِ السِّيَاقِيَّةَ، وَغَيْرَهَا مِمَّا وَرَدَ فِي هَذَا البَحْثِ، تُعَدُّ قِرَاءَاتٍ جَمَالِيَّةً وَبَلَاغِيَّةً رَائِدَةً لِلآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ؛ سَتَفْتَحُ البَابَ، بِإِذْنِهِ تَعَالَى، لِدِرَاسَاتٍ وَقِرَاءَاتٍ جَدِيدَةٍ لِظَاهِرَةِ التَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيثِ فِي النَّصِّ القُرْآنِيِّ وَالنُّصُوصِ العَرَبِيَّةِ الفَصِيحَةِ وَالرَّفِيعَةِ فِي التُّرَاثِ العَرَبِيِّ. وَالنَّتِيجَةُ الثَّالِثَةُ الَّتِي تَوَصَّلَ إِلَيْهَا البَحْثُ تَتَبَدَّى فِي طَرِيقَةِ

تَنَاوُلِ الْمُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ فِي النَّصِّ القُرْآنِيِّ، وَنَعْنِي بِهَذَا أَنَّ البِقَاعِيَّ تَنَاوَلَ التَّذْكِيْرَ وَالتَّأْنِيثَ مِن زَاوِيَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ؛ فَهُوَ تَنَاوَلَ بِالتَّوْجِيْهِ الدَّلَالِيِّ بَعْضَ النُّصُوصِ القُرْآنِيَّةِ الَّتِي يَبْدُو ظَاهِرُ التَّعْبِيرِ فِيْهَا غَيْرَ مُوَافِقٍ لِمَا وَصَفَهُ النَّحْوِيُّونَ بِأَنَّهُ الْأَوْلَى، كَمَا فِي عَوْدِ الضَّمِيرِ مُؤَنَّثًا عَلَى مُذَكَّرٍ، فِي نَحْوِ: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ [سورة الأَنْفَال: ٦١]، أَوْ تَجْرِيدِ الفِعْلِ مِن تَاءِ التَّأْنِيثِ عَلَى الرَّغْمِ مِن أَنَّ فَاعِلَهُ مُؤَنَّثٌ، نَحْوِ: ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ [سورة مُحَمَّد: ١٨]، أَوْ إِلْحَاقِ التَّاءِ بِالفِعْلِ عَلَى الرَّغْمِ مِن أَنَّ فَاعِلَهُ مُذَكَّرٌ، نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ [سورة الحج: ٤٢]، أَوْ مَجِيءِ الوَصْفِ مُذَكَّرًا وَمَوْصُوفُهُ مُؤَنَّثٌ، نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ [سورة الزخرف: ١١]، فِي حِينِ تَنَاوَلَ نُصُوصًا أُخْرَى وَقَعَ فِيْهَا عُدُولٌ عَنِ اسْتِعْمَالٍ إِلَى اسْتِعْمَالٍ آخَرَ اخْتَارَهُ القُرْآنُ الكَرِيمُ وَفَضَّلَهُ عَلَى غَيْرِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الاسْتِعْمَالَيْنِ أَوْلَى مِن الآخَرِ، كَمَا فِي اسْتِعْمَالِ: (مَعِيشَة)، وَالعُدُولِ عَن (عَيْش) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [سورة طه: ١٢٤]، أَو فِي اسْتِعْمَالِ (ضَلَالَة) وَالعُدُولِ عَن (ضَلَال) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ﴾ [سورة الروم: ٥٣]، مِمَّا فَصَّلْنَا الكَلَامَ عَلَيْهِ فِي البَحْثِ. وَهَذِهِ النَّتَائِجُ تَقُودُنَا إِلَى القَوْلِ بِأَنَّ الإِعْجَازَ القُرْآنِيَّ يَتَمَظْهَرُ بِأَلْوَانٍ وَصُوَرٍ مُتَنَوِّعَةِ المَعَانِي وَثَرِيَّةِ الدَّلَالَاتِ كُلَّمَا تَدَبَّرْنَاهُ بِصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَى وَالعِلْمِ. وَللهِ الحَمْدُ عَلَى عَظِيمِ نِعَمِهِ وَلَطِيفِ تَوْفِيقِهِ.

مصادر البحث ومراجعه:

- الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١٣٩٤هـ -١٩٧٤ م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي -بيروت.

- الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي المعروف بابن السراج (ت ٣١٦هـ)، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، لبنان –بيروت.
- إعراب القرآن المنسوب للزجاج،، أبو الحسن نور الدين علي بن الحسين بن علي جامع العلوم الأَصْفهاني الباقولي (ت نحو ٥٤٣هـ)، تح: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري –القاهرة، ط: ٤، ١٤٢٠ هـ.
- إعراب القرآن، أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (ت ٣٣٨هـ)، تح: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، ١٤٢١ هـ.
- الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي (ت ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، ط: ١٥، ٢٠٠٢ م. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، جمال الدين عبد الله بن يوسف ابن هشام (ت ٧٦١هـ)، تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر –بيروت، ط: ١٤٢٠ هـ.
- بدائع الفوائد، شمس الدين محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت –لبنان، د. ط، د. ت.
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، دار المعرفة–بيروت.
- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم،، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط: ١، ١٣٧٦ هـ –١٩٥٧ م.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف

الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ)، تح: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، د. ط، د. ت.

- البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث، أبو البركات ابن الأنباري (ت ٥٧٧ ه)، تح: د. رمضان عبد التواب، دار الكتب العلمية، ١٩٧٠م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد الحسيني، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، تح: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، تحقق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية -بيروت.
- التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (ت ٦١٦هـ)، تح: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، د. ط، د. ت.
- التبيان في أقسام القرآن، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تح: محمد حامد الفقي، دار المعرفة- بيروت، د. ط، د. ت.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر -تونس، ١٩٨٤ هـ.
- التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، تح: تصحيح: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية -بيروت، ط: ١، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.
- تلخيص الخطابة، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المعروف بابن رشد الحفيد (ت ٥٩٥هـ)، المكتبة الشاملة بترقيم آلي.
- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، (ت ٣٧٠هـ)، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط: ١،

٢٠٠١م.
- توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي (ت ٧٤٩هـ)، تح: عبد الرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي، ط: الأولى ١٤٢٨هـ-٢٠٠٨م.
- التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين محمد بن علي المناوي (ت ١٠٣١هـ)، عالم الكتب -القاهرة، ط: ١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط: ١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠ م.
- جامع الدروس العربية، الشيخ مصطفى الغلاييني (ت ١٣٦٤هـ)، المكتبة العصرية -لبنان، ط: ٢٨، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٣ م.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية -القاهرة، د. ط، د. ت.
- الجدول في إعراب القرآن الكريم، محمود بن عبد الرحيم صافي (ت ١٣٧٦هـ)، دار الرشيد، دمشق-مؤسسة الإيمان، بيروت، ط: ٤، ١٤١٨ هـ.
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت ٨٧٥هـ)، تح: محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي -بيروت، ط: ١، ١٤١٨ هـ.
- حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك، أبو العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي (ت ١٢٠٦هـ)، دار الكتب العلمية -بيروت، ط: ١، ١٤١٧ هـ-١٩٩٧م.
- حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، محمد بن علي الصبان (ت ١٢٠٦هـ)، دار الكتب

العلمية بيروت، ط: ١، ١٤١٧ هـ-١٩٩٧م.
- حجة القراءات، أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد، ابن زنجلة (ت نحو ٤٠٣هـ)، تح: سعيد الأفغاني، دار الرسالة، د. ط، د. ت.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ)، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: ٤، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، (ت ٣٩٢هـ)، تح: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: ٤، د. ت.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)، تح: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم-دمشق.
- دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري (ت ق ١٢هـ)، تعريب: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: ١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
- ديوان الإسلام، شمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزي (ت ١١٦٧هـ)، تح: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية -لبنان، ط: ١، ١٤١١ هـ-١٩٩٠ م.
- روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي (ت ١١٢٧هـ)، دار الفكر -بيروت، د. ط، د. ت.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ)، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية -بيروت، ط: ١، ١٤١٥ هـ.
- زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تح:

د. عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي –بيروت، ط: ١، ١٤٢٢ هـ.
- السبعة في القراءات، أبو بكر بن مجاهد البغدادي (ت ٣٢٤هـ)، تح: د. شوقي ضيف، دار المعارف– مصر، ط: ٢، ١٤٠٠هـ.
- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (ت ٩٧٧هـ)، مطبعة بولاق (الأميرية) –القاهرة، ١٢٨٥ هـ.
- شذا العرف في فن الصرف، أحمد بن محمد الحملاوي (ت ١٣٥١هـ)، تح: نصر الله عبد الرحمن، مكتبة الرشد– الرياض، د. ط، د. ت.
- شرح ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري (ت ٧٦٩هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث –القاهرة، ط: ٢٠، ١٤٠٠ هـ –١٩٨٠ م.
- شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو، خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاويّ الأزهري (ت ٩٠٥هـ)، دار الكتب العلمية– بيروت، ط: ١، ١٤٢١هـ –٢٠٠٠م.
- شرح الكافية الشافية، أبو عبد الله، جمال الدين محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني (ت ٦٧٢هـ)، تح: عبد المنعم أحمد هريدي، جامعة أم القرى، ط: ١، د. ت.
- شرح المفصل للزمخشري، موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش الموصلي (ت٦٤٣هـ)، تحقيق: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية –بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١.
- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، أبو محمد، جمال الدين عبد الله بن يوسف، ابن هشام (ت ٧٦١هـ)، تح: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع–سوريا، د. ط، د. ت.
- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، شمس الدين محمد بن عبد

المنعم الجَوجَري القاهري الشافعي (ت ٨٨٩هـ)، تح: نواف بن جزاء الحارثي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية -المدينة المنورة، ط: ١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٤م.

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ)، منشورات دار مكتبة الحياة -بيروت، د. ط، د. ت.
- طبقات المفسرين، أحمد بن محمد الأدنه وي من علماء القرن الحادي عشر (ت ق ١١هـ)، تح: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم-السعودية، ط: ١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- غرائب التفسير وعجائب التأويل، أبو القاسم برهان الدين محمود بن حمزة بن نصر الكرماني (ت نحو ٥٠٥هـ)، دار القبلة للثقافة الإسلامية -جدة، د. ط، د. ت.
- غريب القرآن، أبو بكر محمد بن عُزير السجستاني (ت ٣٣٠هـ)، تح: محمد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة -سوريا، ط: ١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
- غريب القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، تح: أحمد صقر، دار الكتب العلمية -بيروت، د. ط، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨ م.
- الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب سيبويه (ت ١٨٠هـ)، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي -القاهرة، ط: ٣، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨ م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي-بيروت.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله المشهور بحاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ)، مكتبة المثنى -بغداد، ١٩٤١م.

- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي (ت ٤٢٧هـ)، تح: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي -بيروت، ط: ١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي (ت ١٠٩٤هـ)، تح: عدنان درويش -محمد المصري، مؤسسة الرسالة -بيروت، د. ط، د. ت.
- اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي (ت ٧٧٥هـ)، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية -بيروت، ط: ١، ١٤١٩ هـ-١٩٩٨م.
- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن على، ابن منظور الأنصاري (ت ٧١١هـ)، دار صادر-بيروت، ط: ٣، ١٤١٤هـ.
- لطائف الإشارات= تفسير القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت ٤٦٥هـ)، تح: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب -مصر، ط: ٣، د.ت.
- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل صالح السامرائي، الكتاب بترقيم الشاملة آليا.
- اللمع في العربية، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، تح: فائز فارس، دار الكتب الثقافية-الكويت، د. ط، د. ت.
- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري (ت ٢٠٩هـ)، تح: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجي-القاهرة، ط: ١٣٨١ هـ.
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت ١٣٣٢هـ)، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية-بيروت، ط: ١، ١٤١٨ هـ.
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ

القراءات والإيضاح عنها، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، وزارة الأوقاف -مصر، ط: ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ)، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية -بيروت، ط: ١، ١٤٢٢ هـ.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (ت ٧١٠هـ)، تح: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب -بيروت، ط: ١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨ م.
- المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي -القاهرة، ط: ٣، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- المذكر والمؤنث بين اللفظ والمعنى، د. محمود عكاشة، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي -القاهرة، ط: ١، ٢٠٠٩.
- المذكر والمؤنث، أبو الحسين سعيد بن إبراهيم التستري الكاتب (ت ٣٦١هـ)، تح: احمد عبد المجيد هريدي، مكتبة الخانجي-القاهرة، ط: ١، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.
- مشكل إعراب القرآن، أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (ت ٤٣٧هـ) تح: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط: ٢، ١٤٠٥هـ.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن البغوي (ت ٥١٠هـ)، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي -بيروت، ط: ١، ١٤٢٠ هـ.
- معاني القرآن، أبو الحسن المعروف بالأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ)، تح: د. هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي -القاهرة، ط: ١، ١٤١١هـ-١٩٩٠ م.

- معاني القراءات، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري (ت ٣٧٠هـ)، مركز البحوث في كلية الآداب- جامعة الملك سعود المملكة العربية السعودية، ط: ١، ١٤١٢ هـ- ١٩٩١م.
- معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج (ت ٣١١هـ)، عالم الكتب -بيروت، ط: ١ ١٤٠٨ هـ -١٩٨٨ م.
- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الفراء (ت ٢٠٧ هـ)، تح: أحمد يوسف النجاتي ورفيقيه، دار المصرية للتأليف والترجمة -مصر، ط: ١، د. ت.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار الكتب العلمية -بيروت، ط: ١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨ م.
- معجم المصطلحات النحوية والصرفية، سمير نجيب اللبدي، مؤسسة الرسالة -بيروت، ط: ١، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م.
- المعجم المفصل في المذكر والمؤنث، د. اميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية -بيروت، ط: ١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.
- المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية، د. اميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية -بيروت، د: ١، ١٤١٧هـ -١٩٩٦م.
- معجم المؤلفين، عمر كحالة (ت ١٤٠٨هـ)، مكتبة المثنى-بيروت، د. ط، د. ت.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، أبو محمد، جمال الدين عبد الله بن يوسف، ابن هشام الانصاري، تح: د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر -دمشق، ط: ٦، ١٩٨٥م.
- مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي -بيروت، ط: ٣، ١٤٢٠ هـ.